خالد محمد خالد

معاً على الطريق
محمد والمسيح

« الأنبيَاءُ إخوَة
أمهاتُهم شتّى
ودينُهم واحد »

محمد رسول الله





كل الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved



٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين
القاهرة - مصر

Tel: (00202) 7958215-
7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:
elmokatam@hotmail.com

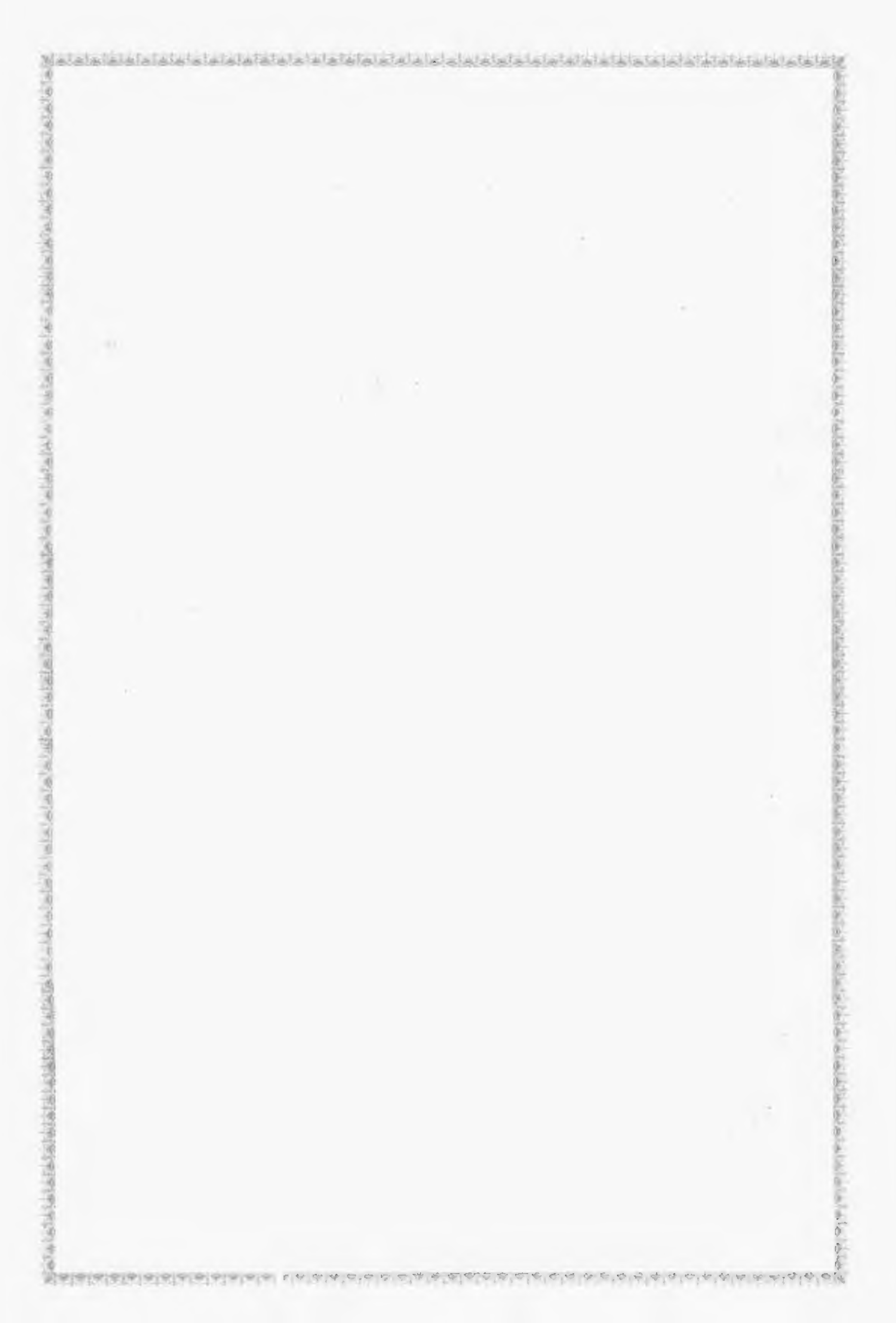
رقم الإيداع ٤٦٩١ / ٨٦

الإهداء

إلى الذين يعملون في مثابرة ومحبة ..

من أجل الإنسان ..

ومن أجل الحياة ..



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة

هذا ما أريده تمامًا..

أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح، وللذين يؤمنون بمحمد:

برهان إيمانكم - إن كنتم صادقين - أن تهبوا اليوم جميعًا لحماية الإنسان.. وحماية الحياة..!!

وليس هذا الكتاب تأريخًا للمسيح، ولا تأريخًا للرسول.. فتاريخهما قد بُسِط بسْطًا لا يشجع على التكرار..

وإنما هو تبيَان لموقفهما من الإنسان، ومن الحياة.. أو بتعبير أكثر سَدَادًا: موقفهما «مع» الإنسان.. و«مع» الحياة..

***

لقد أخذني حَنينٌ واعٍ، إلى الكتابة عن الرسول، وعن المسيح..

وفي ذات الوقت، كان يناديني الواجب الذي كرَّستُ له، أو أريد - دومًا - أن أكرس له حياتي... وهو الإسهام في حماية الإنسان، والحياة، من الكذب.. ومن العجز.. ومن الخوف...

وفي اللحظة التي يعطي فيها وجدانُ الكاتب إشارةَ البدء، وَجدتُني أكتب هذا الموضوع، تحت هذا العنوان..!

ولم أسأل نفسي: كيف تمَّ هذا اللّقاء السعيد بين رغبتي في أن أكتب عن محمد. وأخيه، ورغبتي في الكتابة عن الإنسان، والحياة..!

فأنا أكاد أعرف – تمامًا – لماذا جاء محمد.. ولماذا جاء المسيح..

وإنه فوق أرض فلسطين، شهد التاريخ يومًا، إنسانًا شامخ النفس، مستقيم الضمير، بلغ الإنسانُ في تقديره، الغاية التي جعلته ينعَتُ نفسه بـ«ابن الإنسان»..

وابن الإنسان هذا، ذو العبير الإلهي.. تتركنا كلماته، ويتركنا سلوكه.. ندرك إدراكًا وثيقًا، الغرضَ العظيم الذي كابدَ تحقيقه، ألا وهو: إنهاض الإنسان، وإزهار الحياة.

ومن بعده بستمائة عام.. تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنسانًا آخر. ما يكاد يُسأل عن أفضل الأعمال وأبقاها، حتى يجيب: بذل السلام للعالَم.. وأن تعيشوا – عباد الله – إخوانًا..!!

ويغار على الإنسان.. حتى إن فؤاده الذكيّ، ليكاد يتفطّر أسًى على موبقاته.. ويتفجَّر أملاً في مستقبله، وثقة في قدْرَاته..

أيها الإنسان..

لماذا تسجد للأصنام..؟؟ ولو كان ثمّة من يُسجد له غير الله.. لكنت وحدك ذلك المعبود..!

ولماذا تذِلُّ للسّادة والأعلين.. وأنت هنا، وفي هذه الأرض، خليفةُ الله..!

ويا أيها الناس..

لماذا تعيشون طبقات.. وقد خلقكم الله سَواسية كأسنان المُشْط، ولم يُجْعَل لابن البيضاء على ابن السوداء فضلٌ إلا بالعمل والتقوى...

ويحب الحياة حُبَّ عاشِق عظيم.. فيستقبلها عند صُبح النهار، وممساه.. وفي ناشِئة الليل وأخراه.. ويعانقها في الزرع الطالع وفي المطر الهاطل..

وبعد، فعلى الصفحات المقبلة، سنلتقي بفيض من اللّفتات الذكيّة، والتوجيهات السديدة التي نحّت عن الإنسان كثيرًا من مثبطاته. وسنبصر في ضياء اللمسات الرفيعة الهادية، جميع الجلال الذي أراده للإنسان وللحياة، محمد، والمسيح..

ومن سلوكهما هذا، وتوجيهاتهما تلك، سيأخذ وَلاء المؤمنين بالإنسان وبالحياة، زادًا باقيًا.

وحسبنا هذا، حين نذكرهما في مقام التأريخ والتمجيد.. وفي مقام القدوة والتأسّي.

خالد

مراجع

١- القرآن الكريم

٢- الكتاب المقدس

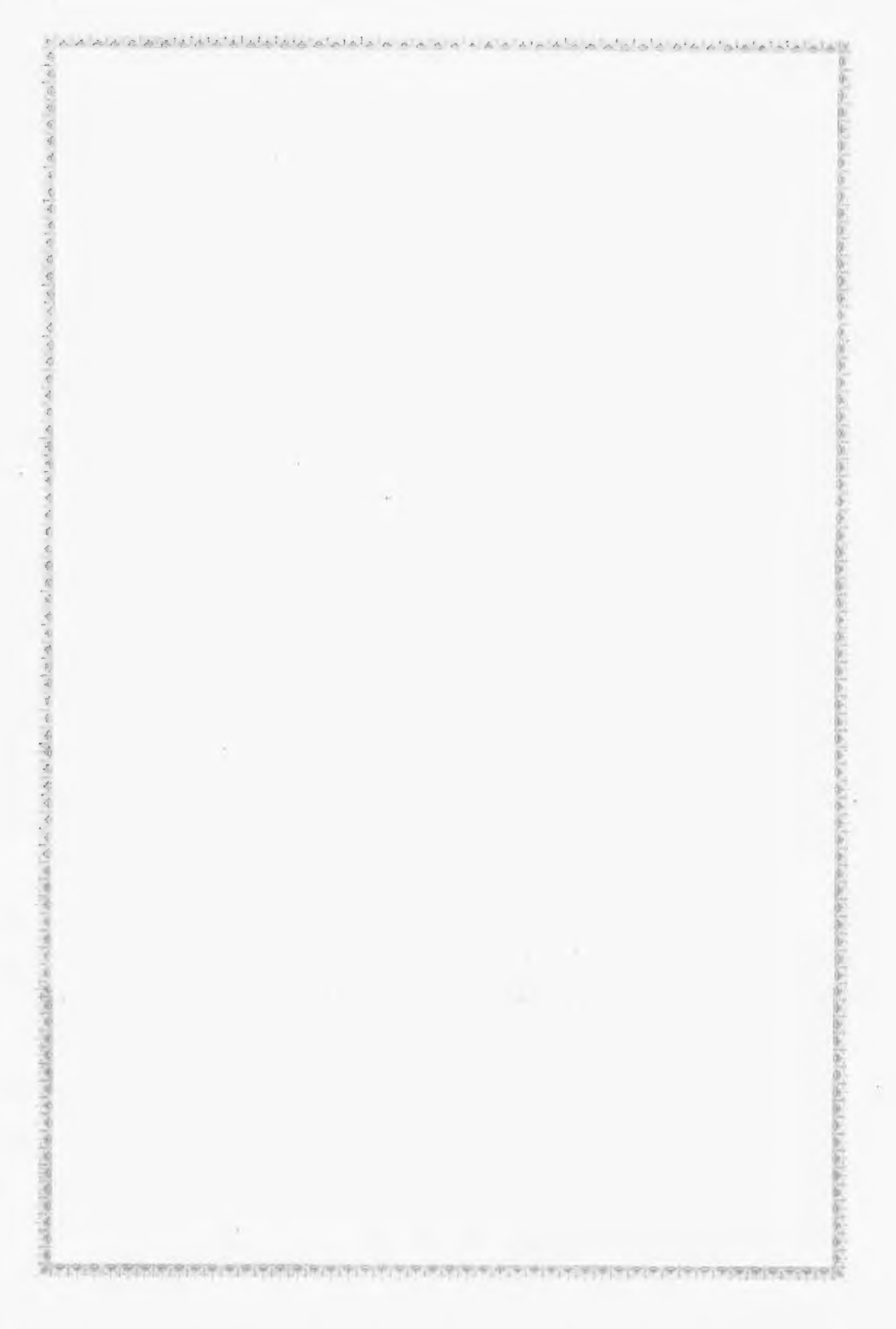
٣- تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول

٤- ابن الإنسان - إميل لودفيج

٥- قصة الحضارة - ديورانت

الفصل الأول

سقراط يقرع الأجراس



كانا نبأً مُستسرًّا في مشيئة الله، لم يُعرف بعد.. ولا تنبأ بقدومهما أحد..

وكانت الحياة ماضية على نهجها، وبين الحين والحين، تقدم للناس نماذج سديدة من البشر، يأخذ ذووها مكان الرواد والقدوة، أمام الصفوف الزاحفة من الخلق، وتضربهم الحياة مثلاً لسعيها الحثيث في سبيل التفوق، والكمال.

وعلى حين بغتة، ومن بيت متواضع يقيم داخل جدرانه رجل فقير يحترف نحت الحجارة، وصُنْع التماثيل.. فتحت الحياة بابًا ضيقًا؛ ليخرج منه إلى الدنيا إنسان جاحظ العينين، أفطس الأنف، قد زهدت قسمات وجهه في الوسامة، فازْوَرَّتْ عنها، وتلفعت بخشونة مستأنسة.. وترقَّب الناس في لا مبالاة، شفتيه الغليظتين لينظروا ما وراءهما، إن كان وراءهما شيء.

واقترب الرجل في خطوات وئيدة ثابتة، ونظرات حصيفة طيبة، وتحركت شفتاه الغليظتان في أناة، وتحولت ابتسامات الناظرين إليه، إلى قهقهات عالية:

-يا له من ساذج.. لماذا لا يفتح فمه ويريحنا..؟!

وواصل تقدمه، خطوة، وفي الجموع سر غامض يدعوها لتفسح له الطريق، حتى إذا شقها صفَّين طويلين، وأشرف على وجودها، بادَهَ الوجوه المنتظرة بسؤال:

- لماذا لا تبحثون عن الخير؟!

- لأننا نعرفه، يا سقراط.

- إذن، فلماذا ما دمتم تعرفونه، لا تفعلونه..؟!

- أليس يكفي أن نكون خبراء في حذقه يا سقراط..؟!

- كلا! ليس الخبير في الخير من يعرفه، بل من يملكه..!!

ثم إني أشك في مجرد خبرتكم به، ومعرفتكم له.. فهل تعرفونه حقًّا..؟؟

- أجل، أجل، نعرفه كما نعرف أنفسنا.

- إذن، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقي لحياتكم..؟

- نعم.. أن نعيش، يا سقراط.

- لكن البهائم تعيش..

- نعيش عيشة صالحة، يا سقراط..

وصاح سقراط وسط لجَّة من الحبور:

حسن هذا.. حسن كثيرًا.. وإذن، تعالوا نعرف ما هي المعيشة الصالحة.. فعندئذ - فيما أظن - سنكون قادرين على أن نعرف، ما هو الخير.

ثم أخذه ما يشبه الرُعَوَاء، فحنى رأسه قليلاً، وأسبل جفنيه، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول؛ ليقول لهم:

«إنها الإشارة الإلهية تعاودني.. إنها تأمرني أن أتعاون معكم على معرفة الحق؛ لأنه لا سبيل للعمل به قبل معرفته»..

❁ ◉ ❁

ماذا كان هذا الرجل سقراط..؟؟

وما علاقته بحديث عن محمد، والمسيح..؟؟

أما علاقته بهذا الحديث، فَجِدُّ وثيقة، وعما قريب نتبينها.

وأما هو فأبو الفلسفة، الذي علّم الناس أن يبحثوا، ويفكروا – والذي لا يزال الفكر الإنساني يحيا في ضياء باهر من عقله، ومن عقول تلامذته..!

ولكن، أليس عجبًا أن أبا الفلسفة هذا، الذي زلزل سكينة العقول الهاجعة بسؤاليه الدائبين: كيف..؟ ولماذا..؟ والذي أطلق عقله الممحص الجوَّاب، يفضُّ مغاليق الأسرار، ويناقش المسلَّمات...

أليس عجبًا أن يصغي لصوت آخر، له طبيعة غير طبيعة العقل، ذلكم هو صوت الوحي.. أو ما أسماه هو: «الإشارة الإلهية»..؟!

إن هذه أُولى علاقات سقراط بحديثنا، وليست آخرها.. وإن في حياته معالم كثيرة جديرة بأن نتملاها ونشاهدها، فلنعش لحظات في صحبة هذه الحياة:

لقد ازدهرت «أثينا» برجلها المضيء، وتحولت بذكائه الثاقب، وروحه الحية، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات.

وآناءَ الليل، وأطراف النهار، أخذت شوارعها، وأنديتها تشهد عقلًا فذًا يعبرها دوامًا ويغشاها، كانسًا أمامه لغو «المشائين» وسفسطتهم، وهاتفًا بأسمى ما في الإنسان كي يستيقظ ويفيق.

وإنه ليناقش الناس في كل شيء، ويدير الحوار في غير تهيب، حول الآلهة، والفضيلة، والخير، والشر، والجمال.. ثم لا يفتأ يُذَكِّر بأننا نحمل داخل ذواتنا شيئًا، هو أثمن ممتلكاتنا.. شيئًا عظيمًا وقويًا ينتظر منا أن نعرفه ونجيد معرفته، ذلك الشيء، هو أنفسنا.

إننا لسنا هملاً، ولسنا نَفضَ الدهر، ولا نتاج المصادفات، بل نحن أبناء مشيئة كبرى اصطنعتنا لغرض كبير.. ونقطة البدء في مسيرنا الطويل هي معرفة أنفسنا.

الموت.. وأنا الذي حين أمرني القواد في «بوتيديا»، و«دليوم» أن ألزم موضعي لزمته، وواجهت الخطر والموت..

«أيها الأثينيون:

«إني أمجدكم وأحبكم، ولكن لأني أطيع الله أكثر مما أطيعكم، فلن أدع الفلسفة ما دمت حيًّا، سأواصل أداء رسالتي، سأدنو من كل من يصادفني في الطريق وأهيب به قائلاً:

ألا تخجل يا صاحِ من انكبابك على طلب الجاه والثروة، وانصرافك عن الحق والحكمة، وعن كل ما يسمو بروحك..؟!

«إن من يحارب مخلصًا في سبيل الحق، لن يمتد به الأجل إلى حين، ومن أجل هذا، فأنا لا أخاف الموت.. أجل إني لا أخافه، ولا أعرف طعمه، ولعله شيء جميل. غير أني على يقين من أن هجران واجبي، شيء قبيح.. ولذا، فحين أخيَّر بين الموت الذي يحتمل أن يكون جميلاً، وترك الواجب الذي هو من غير شك قبيح، فإني لا أتردد في اختيار الأول فورًا.

«بني أثينا..

«منذ طفولتي، يلازمني وحي.. هو عبارة عن صوت يطوف بي، فينهاني عن أداء بعض ما أكون قد اعتزمت أداءه.. وإن جاز أن أسوق لكم تشبيهًا مضحكًا، لقلت: إني ضرب من الذباب النشيط، أرسله الله لهذه الأمة التي هي بمنزلة جواد ثقيل الحركة، ولا بد له في حياته من حافز..

«أنا ذلك الحافز.. ولقد وجدتم مني ناقدًا منبهًا، يثابر على فحص آرائكم، ويحاول إقناعكم عن حق، بأنكم تجهلون

بالفعل، ما تتوهمون عرفانه..

«وإن الخير الأعظم لكم، لهو أن تتركوني أُواصِلُ رسالتي، أما إذا أردتم تبرئتي على أن أترك البحث عن الخير، وعن الحق، فسيكون جوابي: أنا شاكر لكم أيها الأثينيون.. ولكني أوثر طاعة الله الذي أعتقد أنه ألقى على كاهلي هذا العبء الجليل».

❁❁❁

وأخيرًا، يُحكم على سقراط بالموت.. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة. وهنا... مشهد آخر لا بد من وقفة تجاهه..

مشهد نفر من تلامذته، يجلسون إليه داخل سجنه، ويخبرونه في جذل، أنهم أعطوا السجان رشوة وافق بعدها على تهريبه، وأنهم هيأوا له أسباب السفر إلى «تسالي» حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى.

وكأنما حسبوا أنهم يزفون إليه بشرى..! وما كادوا يفرغون من حديثهم، حتى مضى على طريقته يفند رأيهم في أناة، كأنه معلم في مدرسة، وقته متسع، وفرصته مواتية..!

وليس محكومًا عليه بالإعدام، سيعطَى بعد حين قريب كأس السم ليتجرعه، ويسيغه..!!

- «..ولكن لماذا أهرب - يا أقريطون - من الموت؟؟

طبعًا، لأظفر بالحياة..

حسن هذا.. وإذن فلنبدأ بأن نعرف، ما الحياة..؟»

ثم ينثال حديثه الواثق العذب ليخبرهم أن مجرد الحياة، أمر لا يعني الرجل العاقل.. وإنما تهمه فقط، الحياة التي تلتزم الصواب. فهل الهروب صواب..؟؟

- «..ثم كيف أستطيع - يا أقريطون - إذا ارتكبت رذيلة الجبن، أن أتحدث عن فضيلة الشجاعة»..؟!

ويقتنع تلامذته. بل يخجلون..

وحين يسألونه: على أي نمط يحب أن يُدفن؟

يجيبهم:

«على أي نمط تشاءون، إنكم ستدفنون الجسد وحده.

أما الروح فذاهبة إلى مكان يبعث فيها السرور.

هناك بين المباركين..!

لن أمكث بعد مماتي»...

وفي الميقات المعلوم. يُجاء له بكأس صغيرة، تحمل في ذَوبها، منيته، فيأخذها بيد ثابتة، ويدفعها إلى فمه.. ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعو «اللهم اجعلها رحلة مباركة سعيدة».

ويتجرع السم.

ويموت سقراط.

أو على حد تعبيره هو: يموت جسد سقراط..!

***

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة.؟

ومرة أخرى.. ما علاقة سقراط بحديث عن محمد، والمسيح؟

إن الذين تفتحت بصائرهم على قسمات هذه الحياة التي عرضناها في إيجاز شديد، لن يجدوا أنفسهم في حاجة إلى سؤال كهذا.

● فسقراط فيلسوف لا نبي، وهو يعلن أنه لن يذر الفلسفة ومحاورة العاكفين على أساطير الأولين ما دام فيه نَفَس يتردد.

- وهو لا يسأل الناس على تعليمهم أجرًا، ويرفض كل مثوبة مادية تقدم إليه.
- وهو كفيلسوف، يهمه أن يعرف.. وأن يجمع معارفه بنفسه، وبجهده العقلي المتحرر.
- ثم إنه كان يحمل عقلاً شامخًا وشاهقًا لا يتلقَّى، وإنما يناقش، ولا يقلد، لكنه يخلق.
- وهو ضد الأحكام الجاهزة، والآراء المسبقة. ولا يرضى للناس أن يقولوا – ولو للصواب ذاته –: سمعنا وأطعنا.. بل يجب عليهم أن يقفوا.. وينظروا.. ويسمعوا.. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه.
- وهو لم يقل للناس: «اعرفوا ربكم» بل قال لهم، وفي إلحاح دائب ذكي: «اعرفوا أنفسكم».

سقراط، إذن، رجل عقل، يستعمل عقله في أوسع نطاق.. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم، وإنه ليحترم كل ما للعقل من حق في المناقشة، والمعارضة. بل وفي الشك.. ومع هذا..

- فهو يصغي كثيرًا لصوت آخر غير صوت العقل، هذا الذي أسماه «الإشارة الإلهية» أو «الإشارة المقدسة» أي أن الفيلسوف الذي جعل العقل مصدر تفكيره.. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلبيته.
- وهو أيضًا، يفسر الحياة تفسيرًا دينيًّا، فليست دنيانا هذه هي المنتهى.. بل واحة في الطريق. وليست نهايته.

ويفسر الموت بمثل ذلك، فهو عنده دفن للجسد وحده، أما الروح فلها الخلود في عالم يسرّ الصالحين.

- وهو يحسُّ للموتى قيامة وبعثًا.. ينهضون من قبورهم؛ ليستأنفوا

رحلتهم وحياتهم.

ألم يقل لأقريطون: «لن أمكث بعد مماتي».؟!

• وهو قبل هذا، يؤمن بألوهة طيبة، وربوبية قادرة، تدعو الناس إلى معرفة الحق، وفعل الخير.

وهكذا، يتبدَّى لنا «سقراط» بذارًا جديدًا مترعًا بالحياة، تزرعه السماء في الأرض؛ ليؤتي أشهى وأبقى ثمارها.

ويقف الفيلسوف، هاديًا يقرع أجراس الحياة العظيمة، وسط بشرية غافية؛ كي تلقي سمعها ووعيها، إلى الرنين الصادق الذي أهلَّت مع هذا الرجل عصورُه وأزمانه.

ولسوف يظل العالم ثملاً – في غير غيبوبة – بعذوبة ذلك اللحن السقراطي إلى ما شاء الله.

ولكن، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم وسفره، سيفد إلى الحياة هادٍ جليل، ومبدع فذّ، يمشي الهوينا في دروب فلسطين، وسهولها.

ثم بعد ستمائة عام أخرى.. يزور الدنيا.. هاد آخر جِدّ عظيم.. يعبر شِعاب مكة.. ويصعد في جبالها متأملاً وضارعًا.. حتى إذا وجد اليقين الذي يبحث عنه.. وحتى إذا قال له الوحي «قم فأنذر».. نهض في الناس نذيرًا وبشيرًا..

ولكن إنسان أورشليم.. وإنسان مكة.. يختلفان عن إنسان أثينا. فالأخير، يلبس رداء الفلسفة، ومحمد والمسيح، يلبسان رداء الرسالة.

وهنا، وبعد الحديث القريب الذي سقناه، نلتقي بالحكمة التي نبحث عنها، والتي من أجلها وقفنا هذه الوقفة مع سقراط.

فالفيلسوف الذي ترك في الفكر الإنساني كله طابعه الأصيل الفريد،

والذي لا يزال مكانه من فلاسفة عالمنا ومفكريهم، مكان الأستاذ والمعلم - كان يؤمن بالغيب.

يؤمن بالله.. وباستئناف الحياة بعد الموت.. وبوحي يتلقاه المصطفون الأخيار عن الروح الأكبر المشع في هذه الأكوان العظيمة.

صحيح أنه حارب الآلهة، ولكنه لم يحارب الإيمان الذكي.. والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربعون فوق جبل «أولمب» يتعاركون، ويتبادلون كل ما يتبادله صغار الناس من أحقاد، ومؤامرات، ومكايد..!

شَهَّر «سقراط» بهذا النوع من الآلهة، وبهذا الطراز من الإيمان.. واحتفظ بإيمان ذكي بألوهة طيبة عظيمة.

وفي أي العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد إيمانه ذاك..؟

في أعظم عصور العقل السالفة، معرفة وإشراقًا.. العصر الذي استطاع العقل الإنساني خلاله - ومن غير أن تكون معه مختبرات وأجهزة - أن يحسَّ حركة الأرض، وكرويتها، ويستشرف داخل الذرات التي تبدو ضئيلة تافهة، شموسًا هائلة وطاقات مذهلة.

وإذن، فعندما يجيء بعد رحيل سقراط بزمن يطول أو يقصر من يدعو الناس للإيمان بالغيب، فإن واجبهم أن يقفوا.. وينظروا.. ويسمعوا.

أجل، لا أقلّ يومئذ، من أن يسألوا أنفسهم:

لماذا لا يكون هذا حقًا..؟!

ألم يحدثنا بمثله من قبل. رجل خارق الذكاء، صادق الخلق، كبير الإيمان بالعقل، وبالمنطق، شديد الولع بالحوار، وبالشك، اسمه: سقراط..؟

أجل، لماذا لا يكون حقًّا..؟!

أو على الأقل، لماذا لا نصغي إلى ما يقولون..؟

صحيح أن سقراط، حدثنا بأشياء، اكتشفنا فيها بعد خطأها.. بيد أنها كانت من تلك التفصيلات التي تشبه الافتراضات التي يتوسل بها العلماء لاكتشاف نظرياتهم حتى إذا برزت النظرية كحقيقة حية لم يعد لتلك الافتراضات قيمة، ولم تؤثر «وهميتها» في قيمة النظرية وصدقها، على أن جميع القِيَم التي والاها سقراط، وآمن بها وبَشَّر.. كالحق، والخير، والجمال؛ لا تزال، وستظل خالدة، صادقة، شامخة، لا يزيدها العلم إلا ألَقًا وقوة.

فِلمَ لا يكون الإيمان كذلك، ولاسيما والعلم لم يستطع أن يصل إلى يقين بنقيضه..

ويعد.. ففي سقراط: التَقى العقل، والوحي.

وفي سقراط: بَشّرت الفلسفة بالدين..





الفصل الثاني

الهداية ترسل سفائنها



أكان سقراط وحده يرفع لواء الخير والمعرفة ويقرع الأجراس؟

كلّا.. ففي أقطار شتى من الأرض، كانت الهداية ترسل سفائنها، وفي الأفق العالي البعيد، كانت الشُّرُع تتعانق، وفي عباب الحياة الإنسانية، كانت السفن تمضي ماخرة، هادرة، تحمل للناس رسالات الهدى، وفلسفات الخير والصلاح.

فَقَبْلَ «سقراط» بمئات كثيرة من السنين؛ كانت هناك في مصر القديمة، وفي أشور، وفي بابل، محاولات مُثابِرةٌ لاستجلاء الرُّشد والخير.

وكان «إخناتون» في مصر القديمة يعلن أن الإله واحد.. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان. ويناجي إلهه الواحد – آتون – بقوله:

(أنت جميل، وعظيم، ومتلألئ، ومُشرق فوق كل أرض، وأشعتك تحيط بالأرَضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك).

وكان الفكر المصري القديم يملأ أرضه وبلاده هتافًا بقِيَم الحق والخير، داعيًا للعدل، والاستقامة، والمساواة، والرحمة، ومُبشّرًا بالخلود في الدار الآخرة.

وكان ينادي الناس باسم الإله، فيقول:

«لقد صنعتُ الرياح الأربع؛ لكي يتنفس منها كل إنسان كزميله..

«لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة؛ لكي يكون للفقير فيها حق كالعظيم..

«لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس..»

وكان يقول لهم:

(إن الصدق جميل، وقيمته خالدة)

❁❁❁

(لا تتكلمن مع إنسان كذبًا؛ فذلك ما يمقته الله..

(ولا تَفْصِلَنَّ قلبك عن لسانك، حتى تكون كل طُرقِك ناجحة).

❁❁❁

وقبل سقراط بثلاثمائة عام، وتحت سفوح الهملايا في شمالي البنغال، كان فتى وسيم الطلعة، ريَّان الشباب، يرفل في كل ما تحفل به الدنيا من مناعم، ومطاعم، ومباهج، ومسرات.. وذات يوم.. وهو يمتطي صهوة جواده، ويزاول نزهته اليومية، أقحم القدر على طريقه بعض نماذج من البشر، ينطوي أصحابها على أسًى ممض فاجع..!

ولكأنما كان هذا المشهد نداء الغيب لـ «جوتاما» أو «بوذا» كما سيدعى فيما بعد.

ففي أمسية ذلك اليوم، أنفذ في هدوء وعزم، ما أَسَرَّه في نفسه ضحى.. وفي بهجة الليل، انساب كالأنفاس الوادعة من فراشه وقصره ودنياه الباذخة، وخرج ومعه خادمه، حتى إذا بلغا شاطئ النهر، قطع «بوذا» ذوائبه.. ونضا عنه ثيابه المترفة، وما يتحلى به من لؤلؤ وذهب وأعطاها جميعًا خادمه، وأمره

بالعودة، بينما اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين، شمال جبال «الفنديا».

وهناك شق على نفسه، وكلفها من العبادة ما يطيق، وما لا يطيق، وأسلمها لصيام مرير، وزهادة بالغة.

بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه.. ومن ثَمَّ، فقد شرع يعتدل في نسكه، وفي إخباته.

وذات يوم.. رن في روعه نفس الصوت.. الإشارة الإلهية.. أو الوحي.. أو الإلهام.. سموه ما شئتم.

المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق.. وراء ما يحسون وما يبصرون.

وأصغى «بوذا» ثم أصغى، وأصغى.

وأخيرًا، عاد يبث في الناس حكمته ورؤاه.

فماذا كانت هذه الحكمة؟

هي ذي.. ولا تزيد:

- «أيها الناس، انبذوا الأنانية».

إن «بوذا» يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين، وهو لا يعتبر نفسه مسئولاً عن أن يعرف كثيرًا عن سر الإله.. بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان..!!

وهو يدعو الناس، لينبذوا أطماعهم، وأنانيتهم؛ كي يجدوا «النرفانا» في انتظارهم.

و«النرفانا»، عند بوذا هي حالة السمو والصفاء التي يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعيًا وراء الحكمة والحق، والذين يتفوقون على أنانيتهم ويبذلون من ذوات أنفسهم في الخير العام.

إنكم تجعلون من ذواتكم سجونًا ضيقة مظلمة قاتلة، حين تعكفون على أنفسكم وحدها، وتعيشون لأنفسكم وحدها.

وإني إذ أدعوكم إلى «النرفانا» لأدعوكم في نفس اللحظة، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم، وتغادروا سجونكم التي تحتويكم داخل ظلماتها.

عاوِنوا الآخرين، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودة، وأيديكم بالإيثار وبالرحمة.

بمثل هذا، مضى بوذا يبشر، ويدعو، متوسلاً بالمعرفة، وبالأمل، مبشرا المصغين إليه ببلوغ ذُرَى عالمهم المنشود.. عالم «النرفانا».

***

وفي نفس الزمان.. كان هناك في الصين رائد جليل يقول:

«حياتي هي صلاتي»..

كم هي فاتنة وقيمة، هذه العبارة!! وإنها لتدلنا من فورها على موضوع حياة قائلها، ودعوته.

إنه «كنفشيوس».. حصر جهده في تجديد حياة الناس، وضبط سلوكهم وفق ما يختاره لهم من عادات، وأعراف، وتقاليد.

ولقد هجر وظيفته، إلى «دار الحكمة» التي أنشأها في ولاية «لو».

وظل ينضج فكره، ويجمع نفسه، ويحاول اكتشاف دوره، حتى أفضى إلى ما يريد.

وهناك خرج إلى الناس بتعاليم، كل غرضها: خلق الرجل «الجنتلمان».

الرجل الأنيق النظيف، في تصرفاته، وفي حركاته، في طريقة أكله، وفي طريقة سيره، ونومه، وفي طريقة حديثه، وفي حياته كلها.

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه، يصير قادرًا على صبغ نفسه

بالصبغة الجيدة التي يريدها له «كنفشيوس».

وحين تنجح التجربة داخل الصين، تصدر إلى خارجها.. وهكذا يقرُّ «كنفشيوس» عينًا ويهدأ بالاً، تجاه فوضى السلوك والنظم التي تؤرقه كثيرًا، والتي قال عنها ذات مرة:

«إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا، هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودي».

كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى.. يجوبون القفار والنجوع، هاتفين بالصلاة، وبالبر، وبالتضحية.. منقَضِّين بغضبهم الصاعق على الاستغلال واحتكار الثروات.

«.. من أجل أنكم تدوسون المسكين.. وتأخذون منه هدية قمح.. بنيتم بيوتًا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها، وغرستم كرومًا شهية ولا تشربون منها.

«ويل للمستريحين في صهيون.. أنتم المضطجعون على أسرَّة من العاج.. والمتمدِّدُون على الفرش، والآكلون خرافًا من الغنم، وعجولاً من وسط الصيرة.. الهادرون مع صوت الرَّباب، الشاربون من كئوس الخمر..

«كرهت أعيادكم، حتى تَدَعوا الحق يجري كالمياه، والبر يجري كنهر دائم..؟»

ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكفّ، حتى يجلجل في الأفق، وبين الروابي، وفوق السفوح، نذير جديد يهتف به «اشعياء»:

«... ما لكم تسحقون شعبي، وتطحنون وجوه البائسين..؟!

«ويل للذين يَصِلون بيتًا ببيت... ويقرنون حقلاً بحقل، حتى لم

يبق موضع، فصرتم تسكنون وحدكم في شطر الأرض..!

«ويل للذين يقضون أقضية الباطل، وللكتبة الذين يسجلون زورًا؛ ليصدُّوا الضعفاء عن الحكم، ويسلبوا حق بائسي شعبي... لتكون الأرامل غنيمتهم، وينهبوا الأيتام..!

«يقول الرب:

«اغتسلوا.. تنقوا.. كفّوا عن فعل الشر... تعلّموا فعل الخير، اطلبوا الحق، أنصفوا، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة».

ثم يلقي نبوءة وأملاً فيقول:

«ها هي ذي العذراء، تحبل وتلد، وتعطي ابنًا، يحل فيه روح الرب.. روح الحكمة والفهم.. روح المشورة والقوة.. روح المعرفة ومخافة الرب..

«يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض.

«يسكن الذئب مع الخروف، ويربض مع الماعز، يطبعون سيوفهم سككًا، ورماحهم مناجل..

«لا ترفع أمَّة على أمة سيفًا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»..!

أي إنسان كان إشعياء..؟

وما هذه المودة الدافئة العميقة التي يكنُّها للعالم وللسلام..؟!

هل نطمع نحن اليوم، بل وبعد عشرات السنين ومئاتها، في أكثر من هذا..؟

أن تتحول السيوف إلى عملة..

وتتحول الرماح إلى مناجل..

وبعبارة واحدة: تتحول ميزانيات الحروب وسلع الموت إلى تعمير،

وإنعاش، ورخاء وسلام دائم مقيم.

هكذا ألقت الحياة سمعها لرواد من طراز لا نألفه نحن اليوم في أجيالنا.. ولعل هذا مما يباعد أحيانًا، ويفصل بيننا وبينهم بخطوط وهمية مخادعة.

لكن حين نستأني، ونخلص في محاولتنا الفهم والمعرفة، نجد الدور الجليل الذي قاموا به ينادينا، وينادي فينا كل ما نملك من قدرة على الاحترام والتبجيل.

إننا إذ نصغي اليوم لرجال من أمثال هيجل، واسبينوزا، وابن رشد، والفارابي، وسانتا يانا، وابن سينا، وشكسبير، والمعرِّي، وكوبرنيكس، وجاليليو، ونيوتن؛ فإنما نفعل ذلك إكبارًا لما أسدوه لعقولنا، ولوُجداناتنا من علم ومن نور..

وهذا جميل.. ولكن ليس جميلاً أن يَفْتننا روح العصر الذي يجنح عن الغيب إلى الشهادة، وعن النبوءة إلى التجربة.

ليس جميلاً أن يصرفنا روح العصر هذا، عن أن نبذل احترامًا صادقًا ونصغي في تدبُّر وتعلُّم لأولئك الرواد الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم المستبسلة، تطوير الحياة الإنسانية عن طريق تطوير العقل الإنساني وبث رؤى الخير والشجاعة والصلاح في الضمير البشري.

ولقد يكون بعضهم سلك شعابًا يشق علينا اليوم أن نسير فيها، لكنهم في الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم، لم يكونوا إلا روادًا أفذاذًا، ورسلاً صادقين كبارًا.

ومن جماع هتافاتهم الرشيدة المنبعثة من أوطانهم المتباعدة.. خططت تخوم وطن واحد للفضيلة وللحق، وأيضًا للعالم الواحد الذي سينتهي حتمًا

إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد ذلك الوطن الواحد الكبير الظاهر.

لقد كانوا - أثابهم الله عنا خيرًا - ذوي فضل كبير في جمع البشرية بذاتها، وفي لقائها بواجباتها التي أفضت ممارستها إلى ما ظفرت به فيما بعد من تفوق عقلي، ومن تفوق أخلاقي.

وإنا لنسأل:

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم شبهة، ولم تحُمْ حول عقولهم ظِنَّة..

الذين عاشوا وتألموا، وكابدوا الصعاب، وواجهوا الخطر، من أجل الناس، لا من أجل دنيا يصيبونها، ولا منفعة ينالونها..!!

والذين خرجوا من ديارهم، ومن أنفسهم، ومن أموالهم.. وتبتَّلُوا لدعواتهم، وأخلصوا أصدق الإخلاص لواجباتهم..!!

هل كانوا.. وهل كان كفاحهم العظيم.. وأيامهم العاملة.. ورؤاهم المضيئة.

كل ذلك.. أكان هذرًا.. أكان لغوًا، وباطلاً؟

أبدًا.. أبدًا.. أبدًا..

وإنه لمفروض علينا من أنفسنا السوية: أن نحترم كفاحهم النبيل الجليل، ونصغي للحكمة الحلوة النافعة التي لا تزال تشع بها أمّهات تعاليمهم.. والتي انطلقت ذات يوم لأول مرة من هناك.. من أثينا، والصين، والهند، وأرض الشام.. ومن قبل.. من هنا.. من مصر القديمة حيث صيغت على نسق عال وثيق، فلسفاتُ التوحيد، والبعث، والخلود، وحيث رسمت للأخلاق، وللسلوك مناهج قويمة، بقدر ما هي مستقيمة.

✿ ✿ ✿

والآن، اقتربوا.

في خشوع، وتقوى.

إن الباب الكبير يُفتح؛ ليخرج منه إلينا.. إلى البشر جميعًا.. أخوان حميدان.. جاءا يلخصان دعوة الخير كلها، ويعطيانها في إطارها الديني، تعبيرَها النهائي..

انظروا:

ها هما – في ضياء باهر – قادمان:

عيسى.. ومحمد.

ابن الإنسان..

ورحمة الله للعالمين..!

❁ ◉ ❁

أما «عيسى» فسيلخص لنا كل فلسفات المحبة، ودياناتها، ورُؤاها.. ثم يمنحنا إياها في تركيز حاسم.. في دعوة ميسرة.. في سلوك وديع.

وأما «محمد» فسينفُض عن الإنسان آخر أغلال التبعية، والخضوع، ويعلن في شمول واعٍ حقيقة التوحيد.

وهكذا تتلقى البشرية منهما، آخر دروس إعدادها، وتتسلم وثيقة رُشْدها؛ لتمضي بعد هذا في طريق الحياة شُجاعة مبصرة.

تجربة الوحي في قلبها، ونور العقل في رأسها.

والله من قبل.. ومن بعد.. يعينها ويهديها.

❁ ◉ ❁



الفصل الثالث

معًا على طريق الرب

في حجر أُمٍّ بارّة، بدأ المسيح، كما بدأ محمد، أولى ساعات الحياة.. وفي شباب متأمل، وَرِع، طالع كل منهما رؤى مستقبله، واستجلى غوامض سبحانه..

- وكما تلقى «المسيح» بشراه الحافزة من رجل صالح، حين قال له وعينه عليه لا تريم:

«يجيء من هو أقوى مني»!

- كذلك، تلقى «محمد» بشراه الحافزة من رجل صالح، حين قال له وهو مُصْغ:

«هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى».!

- وفي قرى ظالمة لنفسها، صاخبة شهواتها، سار كل منهما عفًّا نقيًّا.
- وأمام مكايد اليهودية المتآمرة الغادرة، وقف الرسولان يتحديان رجسها، ويكابدان بأسها.!
- وأريد للمسيح أن تنتهي حياته الطاهرة على صورة تُشبع الأحقاد الملعونة الملتاثة، لخراف إسرائيل الضالة.!
- وأريد للرسول، أن تنتهي حياته أيضًا بسببٍ من غدر اليهودية

المتآمرة، فدست امرأة يهودية السم في طعامه.!

- وقال «المسيح» حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين:

«اغفر لهم يا أبتاه؛ لأنهم لا يعلمون ما يفعلون».

- وقال «الرسول» ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التي يُقذف بها من كل جانب:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

أكانت هذه المشابهة عفو المصادفة، أم هي ثمرة شيء يشبه القانون العام يُصنع على شاكلته هذا الطراز الجليل من الهداة..؟!

إننا نريد أن نقترب من محمد، ومن المسيح أخيه، ونريد أن نبصر الرؤى الصحيحة التي رأيا بها مستقبل الإنسان، ومستقبل الحياة؛ فإنهما في هذا لَنَظيران مثلما هما نظيران في شدة ولائهما للإنسان وللحياة.

والآن، علينا أن نعرف، ماذا كانت البيئة التي تنتظر كلًّا منهما، وتتعجله المجيء.. عسى هذا أن يهدينا إلى حاجة عصرنا لهما، ولروح الخير الذي تعبا في بثّه وإذاعته.

❁ ❁ ❁

فلسطين، أرض تحمل شعبًا متعدد القَسَمات، يعاني أهلها حقدًا كثيرًا على الغزاة الذين يسومونهم سوء العذاب.. وهم لهذا، يهربون من الواقع الممض إلى رؤى غَدٍ مرقوب، حيث «يجيء ملك اليهود ويخلصهم»!!

إن جنود روما، تشوي الأبشار بسياط كاوية، والخوذات اللامعة المتكبرة تقذف بالرعب في أفئدة القطيع.. والضرائب الفادحة المبهظة تُجبى من ذوي الخصاصة والكادحين؛ لكي تُرفع إلى السيد الماجد «قيصر» المتربع على عرشه الباذخ في «روما»!!

والجاثون بين يدي هذا الواقع الأليم، أبناء شعب تشرَّد في الأرض وفي القرون، وعانى من التمزُّق والمحق، ما جعله يتلمس في شوق بالغ قدوم من يخلّصه.

كذلك عانى من تعدد الأسياد، وتعدد الغزاة الذين أنقَضُوا ظهره؛ ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد، ويهتف بها.

ترى، إن جاءه مخلصه يؤمن به، أم يعدُّ له صليبًا كبيرًا..؟!

وإن دُعي إلى عبادة الله الأحد، يطيع؟! أم يُشرك به الذهب، والمال..؟!

لم تكن تلك أحاسيس اليهود القابعين في بعض فلسطين وحدهم.. بل والمبذورين في بقاع كثيرة من الأرض.

هناك في إسبانيا، وفي إفريقية، وفي جوانب البحر الأبيض المتوسط وفي جنوب روسيا، وبعض بلاد الإمبراطورية الرومانية.

غير أن المقيمين منهم في «أورشليم» وما حولها كانوا أكثر معاناة للألم وأكثر تعلقًا بالأمل، وأيضًا أكثر اضطرابًا وبلبلة وإباقًا.

كان «المجتمع» هناك – إن جاز هذا التعبير – نهبًا لتقاليد خالطها الكثير من العفن، والنفاق، والنفعية.. مما جعل الأنبياء يكثرون وتكاد صيحاتهم المنذرة، تزحم جو السماء.

كان اليهود الفرّيسيون يقفون حراسًا عنيدين على طقوس شكلية خالية من الروح، متجاهلين لُباب الشريعة، وصميمها.

فالسبت – مثلاً – مُقدَّسة فيه الراحة، بل البطالة؛ حتى لقد ترك آباؤهم ذات يوم «أورشليم» تسقط في يد أحد الغزاة السّلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت، وهم يوم السبت لا يعملون، حتى حين يكون هذا العمل دفاعًا واجبًا عن حياتهم وأنفسهم..!!

وهم أيضًا – الفرّيسيون – يهتمون أعظم الاهتمام بغسل الأيدي قبل الطعام، لا من أجل النظافة، بل لمجرد أنه طقس ديني.. ثم لا يهتمون بمأتى هذا الطعام، حلالاً كان أو حرامًا!!

وطهارة القلوب لا تنال من اهتمامهم معشار ما تناله طهارة الأيدي، وعما قليل سنبصر خبث صدورهم وطواياهم وهم يحاربون المسيح ويفتنّون في الكيد له.

واليهود هناك، يمنحون أنفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر، ويرون أنفسهم «شعب الله المختار»! ويزعمون أن الله قد وعد أباهم «إبراهيم» مُلكًا عظيمًا، يحكمون من خلاله جميع الأرض وجميع من عليها!!

ثم هم يعيشون في دائرة مغلقة، منطوية، متزمتة.

وهم في أورشليم يُشكلون «مصرفًا» جشعًا، يؤله المال، ويحتكر الثروة، ويضرب الفقراء والمعوزين بسياط الاستغلال، والربا، والبغي، لا يعرفون عن المقدسات إلا أنها السبيل لحظوظ أوْفَى من الكسب الحرام، وإنهم ليبلغون في غرورهم الصفيق الحد الذي يقولون عنهده: «إن الله فقير، ونحن أغنياء»!!

وهم جماعة تفكر بمخاوفها، وبحرصها، وبأنانيتها، فيجيء تفكيرها من الانحراف، والقسوة، بحيث يبدو أصحابه وكأنهم ليسوا على الإطلاق بشرًا.

لقد قتلوا أنبياءهم، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقًا كَذّبوا، وفريقًا يقتلون.

وإنهم لأساتذة في فن الجريمة.. وفي أعناقهم وأيديهم بقع كبيرة من دم «زكريا» ومن دم «يحيى» ومن دماء زاكية لأنبياء وشهداء كثيرين!

وهم – وإن تظاهروا بالغيرة على الشريعة – لا يضعون شيئًا من حقائقها

موضع التنفيذ.

والذي يعنيهم من الدين كله، شيء واحد: هو مُلكهم المنتظر حيث تجد نزواتهم الجامحة في السيطرة وفي الاقتناء فرصة سعيدة.

وإذا كانوا مشغوفين بمجيء «المخلِّص»، فليس لكي يخلصهم من خطاياهم، ويهدي إلى الله نفوسهم وسلوكهم.. وإنما ليضاعف الثروة في جيوبهم!!

من أجل هذا، رحّبوا بالمسيح بعض الوقت فور ظهوره، فلما تبين لهم أنه لن يكون «السمسار» الذي يسلمهم الصفقة المنتظرة، والمُلْك المرقوب هبُّوا لعداوته وتواصَوْا على حربه!

وأخيرًا، فإن معظم القيم السامية – إن لم يكن جميعها – قد اختفى من هذه البيئة وكان للكُهَّان فضل كبير في هذا..

وفي وحل الجشع، وإلى حضيض الجريمة أخلد الناس الذين كانوا يومئذ هناك.

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة، أرادت أن تتقدم لإصلاح هذه الجماعة الضالة، والتي لم تكن رغم مساوئها الكثيرة، إلا نموذجًا لكثيرين من سكان العالم أيامئذ، فماذا كانت صانعة؟

- تنشئ الجامعات، وتملؤها بالأساتذة والمربين؛ لتلقن في مدرجاتها هذه الخراف الضالة أسلوب الحياة الفاضلة؟
- تتوسل بأجهزة الإذاعة، والصحافة، والنشر؟

لم يكن شيء من ذلك قد وجد بعد..

- إذن تصبهم في قوالب سحرية، يدخل أحدهم من أعلاها شريرًا فاسدًا، ويهبط من أدناها قديسًا طاهرًا؟!

ولا هذا..

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها، فكان المعلمون الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر، ويميزُون الخبيث من الطيب، ويقودونهم بكلماتهم الحارّة الصادقة، وبسلوكهم الفاضل الباهر إلى المحبة والفضيلة، ويُشكلون المجتمع على صورة تمنحه قابلية التطور الصالح، والتقدم السديد.

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين، قبل أن تخالطه إضافات الأتباع، وتحريف المغرضين.

وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجيء.

✿ ✿ ✿

ولكن، قبل أن نشهد مجيئه، يحسن أن نلقي نظرة أخرى على العالم كله؛ فليس يكْفي أن نعرف ماذا كانت «أورشليم» قبيل ظهوره دون أن نعرف ماذا كانت كذلك - وفي نفس الزمان - طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله.

فالمسيح، ومثله الرسول، لم يجيئا ليوقدا شموعهما في أورشليم وفي مكة وحدهما، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله.

ولقد كان على وُجدان بهذه الحقيقة.

قال المسيح:

«جئت لأخلص العالم».

وقال الرسول:

«إن الله أرسلني للناس كافة.. وأرسلني رحمة للعالمين».

ولقد حدث هذا فعلاً ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة، ولا تزال الديانتان: المسيحية والإسلام، تغمران

الأرض.

وهذا شيء طبيعي فللأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها.. ولاسيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التي تحمل من أماني البشر، وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون.

فما الوضع الذي كان يسود العالم يومذاك؟؟

كان الشرق الأقصى يمارس فلسفته الخاصة، وتتطور النظم في بلاده تطورًا عنيفًا تارة، وهادئًا تارة أخرى.

ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقًّا، كانت أيامئذ تعلن عن نفسها في ذلك الركن الأقصى من الأرض.

ففي الصين التي كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله ألفًا وخمسمائة ميل.. والتي كانت قد وحّدت ولاياتها الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة.

الصين تلك، كانت تمارس تجربة هائلة بدأها الإمبراطور «وو- دي» ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة الإمبراطور «وانج مانج».

وتنتظم هذه التجربة: إلغاء الرق وتأميم الأرض الزراعية تأميمًا كاملاً شاملاً، وتأميم الملح، والحديد والمناجم، وتثبيت الأسعار!

أما في الشرق الأدنى، وأوربا، فقد كان هناك استعمار وبيل، وَرِقٌّ بشع!

فالإمبراطورية الرومانية، على الرغم من محنتها، وتمزقاتها الداخلية، قابضة على أعناق رعاياها، في بلاد غالة، حيث شمالي إيطاليا، وجنوبي فرنسا، وفي بريطانيا، وفي النمسا، والمجر، ورومانيا، ويوغسلافيا، وبلغاريا..

وفي إسبانيا، وشمال إفريقية..

وفي مصر، والشام..

وفي أقطار أخرى من الأرض، سيطرت عليها..

وكان سلوك روما مع الخاضعين لها - عجيبًا، فهي تُصدِّر إليهم قيصر، وتأخذ منهم أرزاقهم، وما تنتج بلادهم من ثروة وخير..!!

ولا بأس لدى روما أن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال ممثلين لها في مجلس الشيوخ الروماني، كما حدث حين سمحت بهذا لبعض من أشراف فرنسا..

تمامًا، كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها مقاطعة فرنسية نظير التصدق عليها بإعطائها حق التمثيل في جمعيتها الوطنية[١]..!!

ولم يكن الاستعمار الروماني ممثلاً في جيوش «روما» وحدها.. بل كان يؤازر القوة والسلاح، فريق من الاحتكاريين العتاة..

فقبل ميلاد المسيح بستة وأربعين عامًا، لا غير، كان للاحتكار الروماني في الأندلس وحدها، ثلاثمائة مصرف.. تنزح من إسبانيا: ذهبها، وقصديرها، ونحاسها، وفضتها، وحديدها..

كما كان الاحتكار الروماني، يعاونه الاستعمار الممثل في الحكومة والجيش، يسيطر عن طريق قادس على تجارة المحيط الأطلنطي مع غربي إفريقية، وفرنسا، وبريطانيا..

وفي مراحل مختلفة من سيطرة «روما» كان استعمارها يتسم بقسوة لافحة غليظة.

فمثلاً: كان الرومان يصطادون أهل «كورسكا» بالكلاب؛ ليبيعوهم عبيدًا..!

---

(١) كتب هذا قبل أن تظفر الجزائر باستقلالها.

وكانت الضرائب، تفرض على الأرض، وعلى الأملاك، وعلى الحيوانات، وعلى العبيد..!

صحيح أن الاستعمار الروماني، كان ينشد العمران، ويقيم المشاريع العظيمة في كثير من مستعمراته تلك..

ولكنه كان يفعل هذا، ليزداد دخله منها.. أي أنه كان يُسمن البقرة؛ لتدرَّ مزيدًا من الحليب..!

ففي شمالي إفريقية – مثلاً – أقام السدود العالية لاختزان الزائد من المياه.. وغرس أشجار الفاكهة والزيتون، حتى قيل: إن المسافر كان يقطع الطريق من طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار الزيتون..

ولكن لمن كانت هذه الخيرات تُجبَى وتُحمل..؟؟

لسادة روما وشعبها..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون، فمجرد فَعَلة وعبيد..!

ولقد أراد «أغسطس قيصر» ذات يوم أن يكافئ بعض ضباطه وجنوده على إخلاصهم له فأقطعهم «قرطاجنة» كلها.. وعاشوا هناك سادة وأشرافًا.. بينما تحول أهلها طبقة دنيا من الرقيق..

✿◉✿

كانت «فلسطين»، إحدى مستعمرات هذه الإمبراطورية، يقطنها مليونان ونصف مليون من الناس، يعيش الوثنيون منهم في مدنها الساحلية.. ويتركز اليهود في المدن الداخلية.. ويعاني شعبها ولاسيما اليهود، نزاعًا عنصريًّا، واضطرابًا سياسيًّا.

فبين أهل يهوذا، والسامريين، وبين الصدوقيين، والفرّيسيين – عداوات دائمة الاستعار.. ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة.

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها، فكان المعلمون الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر، ويميزُون الخبيث من الطيب، ويقودونهم بكلماتهم الحارّة الصادقة، وبسلوكهم الفاضل الباهر إلى المحبة والفضيلة، ويُشكلون المجتمع على صورة تمنحه قابلية التطور الصالح، والتقدم السديد.

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين، قبل أن تخالطه إضافات الأتباع، وتحريف المغرضين.

وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجيء.

***

ولكن، قبل أن نشهد مجيئه، يحسن أن نلقي نظرة أخرى على العالم كله؛ فليس يكْفي أن نعرف ماذا كانت «أورشليم» قبيل ظهوره دون أن نعرف ماذا كانت كذلك - وفي نفس الزمان - طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله.

فالمسيح، ومثله الرسول، لم يجيئا ليوقدا شموعهما في أورشليم وفي مكة وحدهما، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله.

ولقد كان على وُجدان بهذه الحقيقة.

قال المسيح:

«جئت لأخلص العالم».

وقال الرسول:

«إن الله أرسلني للناس كافة.. وأرسلني رحمة للعالمين».

ولقد حدث هذا فعلاً ولم تبق دعوتها داخل القرى الصغيرة، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة، ولا تزال الديانتان: المسيحية والإسلام، تغمران

هذا رسم بياني؛ للموقف كله، في العالم الذي تسود معظمه الأنانية من جانب، والمسكنة من جانب آخر.. وفي الأرض التي سيقدر لها أن تستقبل المسيح القادم.

ترى. ماذا سيصنع به يهودها.. الذين طالما انتظروه..؟!

❁ ◉ ❁

في هذه الدنيا التي لمحناها، شهد «بيت لحم» ذات صباح نضير مولد طفل.

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده، بقادر على استجلاء المستقبل العظيم لهذا الوليد النائم في مهدٍ متناه في البساطة..

ومع هذا، فلن يغيب طويلاً شروق هذا المستقبل، ولسوف يكبر الطفل، ويشبّ وتهاجر به أمه خوفًا عليه، ثم يعود فيستمع ليوحنا المعمدان، ويلقف منه الشرارة التي ستطلق قواه العارمة من مَكامنها، ويمضي هادرًا، جيَّاشًا. يحدث الناس في دَعَة وحلم ما داموا يصغون إليه وُدَعاء مسالمين.

ثم يجلجل فيهم كالنذير – يا أولاد الأفاعي – حين يلمح في عيونهم الماكرة نوايا الغدر والكيد.

ولسوف تبدأ المسيحية – في تقديرنا – من ساعة اللقاء العظيم بين «يوحنا»، و«المسيح»[١].

فمن كان الذي شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول ما خرجت إلى بلاد الناصريين، ثم إلى ما حولها، ثم إلى روما الجاثية في ابتهال ضارع، ثم إلى أقطار شتى في الدنيا، والتاريخ.

---

(١) أو لعلها تبدأ بـ «أشعياء» وثورته المسالمة من أجل العدالة، والفضيلة والسلام.

فإلى هناك لنبصر مشهد الشروق..

❁ ❁ ❁

نحن الآن، على ضفاف الأردن.. وهذا الرجل المتبتل، الأشعث الأغبر، الذي يرتدي ثوبًا من الشعر، ويعيش على عسل النحل، وعلى الجراد الجاف، هو «يوحنا» أو «يحيى» عليه السلام..

إنه عابد أوّاب، ليس معه من الدنيا شيء.. وإنه ليدعو الناس إلى التوبة، ويُعمّدهم بماء النهر كي يساعدهم على تطهير قلوبهم. وإنّه أيضًا ليُندّد في عنف شديد بالنفاق.. وبالكهنة الذين (يغسلون أيديهم وقلوبهم ملآنة دمًا).. ملآنة بالشر وبالحقد وبالأنانية..!!

وهو، وإن يكن في عزلته تلك، بعيدًا عن الواقع السيئ الذي تموج به «أورشليم» إلا أنه بهذا الواقع جِدُّ خبير..

ففي «أورشليم» هذه.. تلقى دروسه، وعاش من عمره بعضه، بين الكهان، والفرّيسيين، والتجار، وجنود روما وعملائها..

وهو شديد الخوف من الله، ومن عقابه.. وإنه لا ينسى أن هذه الرقعة من الأرض، التي يعيش فوقها، قد ازدهرت عليها ذات يوم «سدوم» ثم خسف بها، وبأهلها، حتى لم يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة..

وهو يستعيد ذكريات القرون التي كانت لها على اليهود وطأة شديدة، فيبصر وراء كل ضربة محقهم بها القدر؛ تِلالاً من الخطايا ارتكبوها فأخذت الرجفة صالحهم، وطالحهم.

أفيسكت عما يرى من جرائم وسيئات، أم يصدع بما في نفسه من حديث نافع مضيء..؟

لكن «أورشليم» على بعد عشرة أميال منه.

فهل يتركه طغاتها يتكلم حين يأتيهم نبأه، أم يسوقونه إلى نفس المصير الذي طالما ساقوا إليه أنبياء وقديسين.. ؟؟

إن طبيعة الإنسان، هي الإنسان نفسه، وطبيعة «يوحنا» بكل ما تحمل من جيشان، وسكون.. من إقدام وخشية.. من تطلُّع وعزلة.. من نُسُك وتبتل، وغيرة على الإنسان..

هذه الطبيعة، هي يوحنا، وإنه ليؤثر في الآخرين، بنقل طبيعته إليهم.

هكذا نحن البشر.. تأثيرنا في الآخرين، يعني أننا نفذنا إليهم بالجزء الأقوى من طبيعتنا..

وقد يكون الذي يتلقى التأثير، أقوى من المؤثر ذاته.. مع هذا، يظل للتأثير نفعه، وضرورته.. لأن يكون بمثابة «إشارة البدء والانطلاق». ورفع الغطاء عن القوة الحبيسة المنتظرة..

وشيء يشبه هذا، سوف يحدث بين يوحنا، والمسيح.

لم يطل تفكير «يوحنا» فاختار طريقه، وواجه مسئوليته، ووسط حشد من الناس وقف يذيع أولى كلماته:

- «توبوا.. لأنه قد اقترب ملكوت السموات»..!!

وطار بين البلاد نبأه، وكثر سعي الوافدة إليه.

وذات يوم، والمسيح عاكف على شبابه الطاهر، يجلوه، ويحسن تنشئته ورعايته، التقى بقافلة من قريته، أصحابها عائدون من شاطئ الأردن ذاك..

ويقترب منهم في شوق ويسألهم:

- هل رأيتموه..؟

- نعم..

- ماذا كان يقول للناس؟

- سمعناه يقول:

«من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا».!

وتتفتَّح روح المسيح، ويتهلل وجهه.. ويحس كأنها كلماته.. كأنها مبادئه.. أو كأنه أولى الناس بتقبلها، وحمايتها، وتحويلها إلى سلوك ونهج.

«من له ثوبان، فليعط من ليس له»..

ما أكثر ما فيها من عذوبة، ومن رحمة، ومن عدل..!

وما أحْرَاها بالتضحية في سبيل حمل الناس عليها، سيما أولئك الشريرين القابعين في «أورشليم» المُخفِين وراء أرديتهم الفضفاضة، نفوسًا تفوق في اللؤم، اللؤم نفسه، وتكاد الجريمة حين تراها تصيح:

مرحبًا بوطني..!

وعاد يسألهم:

وكيف يستقبل الناس؟

ويجيبونه:

إنه يفتح قلبه لهم جميعًا، حتى العشارين لا يردهم، بل يعمدهم ويعظهم، وحتى الجنود، لقد سألوه عما يصنعون ليرضوا الرب، فأجابهم:

«لا تظلموا أحدًا..

«ولا تَشُوا بأحد».

وازدادت روح المسيح إشراقًا وَوَجْدًا، وأوى إلى نفسه يفكر ويتأمل..

إن الرُّؤى العظيمة الباسلة التي يحسها في أعماقه قد انطلقت صادحة على ضفاف الأردن، فلماذا لا يكون هناك في استقبالها؟

ومع أول قافلة، شدَّ رحاله.

وهناك، بين الصفوف المصغية إلى كلمات يوحنا، أخذ مكانه في خشوع وتقوى..

كان يوحنا يقول:

«أنا صوتٌ صارخٌ في البَرِّيَّة..

«قَوِّموا طريق الرب».

وشق السكونَ سؤال وُجِّه إليه:

- هل أنت المسيح الذي بُشِّر بمجيئه؟

ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة:

«لست أنا المسيح..

أنا أعمدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى مني، من لست أهلاً لأن أحل سيور حذائه».

ثم يفتح عينيه جيدًا على الوجوه الباسرة، وعلى اللحى الطويلة المتآمرة في أصداغ الكهنة الذين جاءوا ليتآمروا به، وإذ يبصر فوقها تحركات أحقاد تتحفز وسخافات تتنادى، يبددها بصيحة زاجرة:

- يا أولاد الأفاعي!!

وينبهر المسيح بهذه القوة المتحدية.

وحين ينزل يوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين، يتقدم المسيح إليه راجيًا تعميده، ويلفه يوحنا بنظرة غريبة، ثم يهمس في سمعه:

«أنا محتاج أن أتعمَّد منك، وأنت تأتي إليَّ».؟!

ويختلج رأس المسيح متسائلاً، وتلتمع أمامه مرة أخرى وسط هالة من الضوء الدَّال الكاشف، كلمات «يوحنا» التي صدح بها منذ قريب:

«يأتي من هو أقوى مني».

ولكن الحوادث تترى في مفاجآت عجيبة، وفي بلبلة موجعة..

فجنود «هيرودس» في خُوذهم المستكبرة، وفي «بطونهم» المتفخة بالحرام، يدهمون المكان الآمن الوديع، ويعتقلون «يوحنا» ثم يذهبون به..

ويعود المسيح إلى «الناصرة» بروح غير الذي غادرها به.. يعود وداخل إهابه إنسان آخر، لا تشغله حرفته التي يكسب منها عيشه، فـ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذي يحس أنه دُعي لأدائه..

ونفس الصوت الذي سيسمعه «محمد» بعد ستمائة عام يرن في روعه رنين الصدق هاتفًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢]..

نفس الصوت، يرن الآن في روع المسيح:

«أنت ابني الحبيب الذي به سُرِرت..

للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد».

ليس هناك ذرة من ريب في صدق الحس الذي تلقَّى به محمد كلمات ربه.

ولا ذرة من ريب في صدق الحس الذي تلقَّى به المسيح نداء ربه.

فليس في حياتيهما أثر – أي أثر – لتصنع أو ادّعاء.

حتى كلمة «ابني» في عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها، فنحن جميعًا أبناء الله، بمعنى أننا خلقه.. وأبوته لنا، لا تعني تلك الأبوة الوالدة التي تعرفها «دفاتر المواليد»، بل هي أبوّة الخالق الأول، والأعظم.

وعما قريب سنلتقي بالرسول وهو يستعمل نفس التعبير، فيقول:

«الخلق عيال الله..

وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله».

بل سنسمعه يقول:

«يقول الله عز وجل: لا تسبّوا الدهر؛ فأنا الدهر».

فهل الله حقًا هو الدهر، بالمفهوم الحرفي لكلمة الدهر..؟!

لا.. وإنما هو سبحانه، الدهر.. بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة والمبثوثة مشيئتها في الزمان والمكان.. والتي ينبثق من خلال رحمتها، وقدرتها أسباب الحياة وطاقاتها.

وكذلك وصف الله بالأبوة، فهو القلب الكبير الذي يسعنا بحنانه وببره.

أجل، جميعًا: صالحنا، وفاسدنا، قوينا، وضعيفنا.

وفيما وراء هذا، نلتقي بالمسيح، ينعت نفسه كثيرًا بأنه «ابن الإنسان».

بَيْدَ أن «ابن الإنسان» هذا، لم يعرف فؤاده الذكي أية تخوم فاصلة بين الأب، والرب..

لقد تخطَّى حدود النسب الأرضي، وجاوزها جميعًا.

حتى أمه، حين يقال له ذات يوم: إنها بالباب تريدك! يجيب: من هي أمي، ومن هم إخوتي..؟؟

«إخوتي وأمي هم من يعملون مشيئة الرب»!!

هذا هو ابن الإنسان، الذي نعت الله بأنه أبوه..

والذي قال: «كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يُقلع».

إنه الآن أمام الله، وجهًا لوجه – إن جاز هذا التعبير – وجميع الأحساب والأنساب، والأسباب، تَزَّاوَر وتختفي، وتذهب بعيدًا.. بعيدًا.. بعيدًا..

لأن القبس الإلهي، المعطَى لكل إنسان، قد نما في المسيح، وتفوق وانتشر، حتى ملأ وجوده كله، ولم يَعُد يبصر في ضيائه الباهر سواه.. حتى أمه التي ولدته، وحتى إخوته.

ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التي تجعل من جميع البشر إخوة له، ومن جميع الأمهات أمًّا.. ومن وراء هذا كله، أبوه السماوي.. ربه الذي أرسله، كما قال هو ليجبر منكسري القلوب، ويطلق الأسارى من القيود!!

لقد أسهبنا قليلاً في هذه المسألة، ولم يكن بد وقد جاءت مناسبتها، من أن نسهب ونفيض.

والآن نعود إلى حديثنا الأول..

إلى يوحنا..

لقد اعتقلته جنود روما، جنود «هيرودوس» إلى حيث لا يستطيع بعد اليوم أن يلتقي بالناس، ويهدم في أنفسهم أوثان الطاعة لروما، وقيصرها، ولكهنة أورشليم.

أجل.. إلى السجن، حيث لا يلتقي بعد بالقلوب الظامئة إلى كلمة الله ولا بالنفوس الساخطة على الظلم والكذب.

وخلت ساحة النضال من بطلها المقتحم.. فهل سيطول بها العهد حتى توحش..؟؟

كلا، لقد قال يوحنا قبل أن يمضي: «يجيء من هو أقوى مني».

فمن كان يجد في نفسه اليقين بأنه هو، فليتقدم..

وكان هناك واحد يملأ اليقين رُوعه ووعيه..

وكان هو المسيح..

أو قد دقت الساعة..

أجل، يابن الإنسان فتقدم!!

وفوق مكان عال، في بيت لحم، وقف يبلغ الحافِّين حوله أولى كلمات

الحق:

«قد كمل الزمان..

«واقترب ملكوت الله..

«فتوبوا..

«وآمِنوا بالبشرى»..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم، ريثما نمضي في رحلة سريعة إلى مكة لنشهد مجيء أخ له كريم، ونلتقي بأولى سمات الزمالة بين محمد والمسيح...

✿ ❁ ✿

عَلاَمَ يدلُّ هذا الرجل الصالح، الزاهد، الأوَّاب، الهائم بين الصحاري والجبال، الضارع إلى الله في نجوى دائبة:

أنفسي لـك اللهـمَّ عـانٍ رَاغِـمُ   مهـما تُجَـشِّمْني فـإني جاشِـمُ

إنه «زيد بن عمرو بن نفيل» يغمره الإحساس بنبوة آتية، ويود لو يكون صاحبها، يختاره الله لها.. فيحظى بكل ما في هذا الاختيار من شرف، ويؤدي كل ما يقتضه من حق.

وإنه ليجوب الأرض وحيدًا، مِلحًّا في دعائه، ممعنًا في رجائه، مبتهلاً إلى ربه سبحانه، أن يعطيه إحدى الحُسنَيَيْن:

يكون هو النبي المختار..

أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه..

كان «زيد» هذا - كما نعته المؤرخون - راجح العقل، قوي الخلق، ذكي الفؤاد، ثاقب البصيرة.

وهو في إحساسه العميق بمقدم نبي، لم يكن منجمًا، ولا عرَّافًا، بل كان رجلاً مفتوح العينين على واقع البيئة، وروح العصر، فأدرك وجود حاجة

تاريخية ملحَّة، تنادي مصلحًا.. منقذًا.. رسولاً..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء، حدًّا عيَّن له ميقات ظهوره.. اليوم.. أو غدًا.. ولن يتأخر إلى بعد غد على الإطلاق.!!!

إن هذا الحسَّ الصادق لابن نفيل، يشكل ويمثل ضرورة تاريخية كانت تبشر فعلاً بمجيء محمد..

وهكذا، وبعد ميلاد المسيح بقرابة «خمسمائة وسبعين عامًا» جاء في رحلة عظيمة إلى الحياة، واحد من أعظم أبنائها شأنًا، وأكثرهم برًّا، وأهداهم سبيلاً..

وكما لمحنا البيئة الخاصة والعامة، التي كانت حين جاء المسيح.. نريد أيضًا أن نلمح البيئة الخاصة والعامة، التي كانت، حين جاء محمد عليهما صلوات الله، وبركاته، وسلامه.

- كان العرب مبثوثين في جزيرة مترامية، يزخر شمالها، مثلما يزخر جنوبها بالفضاء الواسع، وبالصحراء العارية، وتقوم القبائل بالبحث الدائب عن لقمتها، وعلى حراسة عاداتها، وعباداتها.. وتسير بهم الحياة بطيئة، كخُطى الأغنام في مشيها اليائس وراء عشب تأكله وترعاه..!

- ولكن هناك قرى كبيرة تتجمع فيها مراكز الحياة القَبَلية.. مثل مكة، والمدينة، والطائف، في شمال الجزيرة.

وفي وسط مكة - التي سينعتها القرآن حين ينزل - بأم القرى يقوم بناء متواضع، لكنه هائل التأثير، مقدس المكانة.

إنها الكعبة..

- وفي الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة، فما كانت كذلك في أيامها الأولى..

أما اليوم، فلكل قبيلة، أو مجموعة من القبائل صنمها المعبود.

يغدو الناس، ويروحون. ثم ينتهي تطوافهم دومًا إلى هذه الأصنام يبثونها حاجاتهم، ومخاوفهم، وآمالهم..

● في جنوب الجزيرة، أو شبه الجزيرة، يحكم الفرس الذين ناصروا ملوك حِمْيَر على الأحباش، ويتخذون من اليمن قاعدة لحكم سافر تارة، ومقَنَّع أخرى.. ولسوف يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المقبل بإمبراطورية الفرس كلها.

● وفي الشمال، حيث الحجاز، يسيطر أشراف القبائل، ورؤساء العائلات والعشائر، يصلهم الساحل الغربي بمرافئ البحر الأحمر وتجارته، وينداح الطريق أمام قوافلهم وتجارتهم حتى بلاد الشام..

● وهذا الشعب الصبور، شديد التعلُّق بحريته، فذُّ الولاء لها، لا يرضخ لأي حكم خارجي، ويُؤْثر شظف الصحراء، ولأواءها؛ لأن صعيدها المترامي، وآفاقها البعيدة، وحياتها المنطلقة.. كل هذا، يغذي في نفسه الطامحة، حنينها الأبدي إلى مزيد من الحرية والانطلاق.

ولكنه، على الرغم من هذا – وإنه لعجيب – يخضع للأصنام خضوعًا مذلاً، فأمام الحجر الصامت العاجز، ينيخ كبرياءه واعتداده، ويسلم أمره ومصيره.. ويبتهل، ويناجي، ويرجو، ويخاف..!!!

● ثم إنه على الرغم من بداوته، يمارس حياة أدبية رفيعة.

فالشعراء يملئون فجاجه.. وللشعر – كما للنثر – أعياد ومواسم تشد إليها الرحال، وليس هذا فحسب.. فالإنتاج الأدبي المتفوق يُجاز ويكافأ، بأن يرفع إلى أقدس مكان، فيعلق بأستار الكعبة، حتى ولو كان هذا الإنتاج يصور مغامرة حب، أو ليلة حمراء..!

وعن طريق القصة المنظومة، كان يؤرخ لنفسه، ويعبر عن تجاربه تعبيرًا فنيًا عجيبًا.!

- وفي طرقات مكة، كنتَ تسمع صهيل السادة وثُغاء العبيد... وتلتقي بالطائفين حول البيت العتيق، وبالمخمورين الذين أضناهم طول السهر في غرف العاهرات.. وقلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل.. فإذا غادرنا مكة إلى العالم، وجدنا شيئًا قريبًا مما كان، قبيل ظهور المسيح.
- في الشرق الأقصى: تفيق اليابان على صوت المدنية القادمة إليها من الصين، وكوريا، والبوذية..
- وفي الهند: تمزقات داخلية، وحروب أو فتن أهلية متساوقة..
- والصين: مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التي خرجت عليها بعد سقوط أسرة «هان»، ثم لا تلبث أن تستقبل عصرًا من السلام، والرخاء جدّ عجيب.!

ومراكبها المترعة بخيراتها، تمتطي ثَبَج البحر، قاصدة الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي، والخليج الفارسي..

الثقافة، والأدب، والفن في أزهى عصورها.

ولعلنا – الآن – ندرك سر وصية الرسول التي سيقولها فيها بعد: «اطلبوا العلم، ولو في الصين».!

هذا هناك..

أما هنا: فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الفارسية، تخوضان من أجل المستعمرات في الشرق الأدنى، وفي أوربا، حروبًا مُفنية.!

فجستنيان يخرق الهدنة، ويهاجم شمالي إفريقية، وإيطاليا.. ويرد

أنوشروان التحية بمثلها، فيجتاح بلاد الشام، وتسقط في حجره كل ثروات، وخيرات «أنطاكية».!

ثم يعقدان الصلح.. ثم يعودان للحرب.. ولسوف يظل بأسهما بينهما شديدًا، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب، أتباع رسول كريم فيذيعون نعي الإمبراطوريتين الآفلتين..

أما اليوم، فإنهما في حروبهما المخبولة من أجل السيطرة والسلب، تبسطان سلطانهما على الشام، والعراق، وسوريا، ومصر.. وتسومان الناس خسْفًا وضنكًا.

وحين نعود إلى حيث كنا، إلى الصحراء العارية.. إلى الكهوف والبادية.. إلى دنيا الأصنام، والأزلام، والميسر.. سنسمع صوتًا جديدًا، يلقي حديثًا عجبًا.. سنبصر إنسانًا جديدًا يذرع الوجود في رفق وأناة..

إنه هو الذي كان «زيد بن عمرو بن نفيل» يلح في البحث عنه.. والذي كان الزمان والمكان يتطلبانه، وينتظران قدومه.

إنه، محمد..

«أجود الناس كفًا.. وأجرأهم صدرًا.. وأصدقهم لهجة.. وأوفاهم ذمة.. وألينهم عريكة.. وأكرمهم عِشْرة». إنه قائم بين نفر من الذين يصغون إليه هناك.. في ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء، يحدثهم عن الله.

﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾؟؟ [قريش:٤]

الجوع، والخوف..؟؟

يا لها من بداية جريئة، وسعيدة!!

ويتحلق حوله حرَّاس القديم، وعُبَّاد الأصنام، فيهمس إليهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ ﴾

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾..!!

وهذا أيضًا، كم هو رائع..!

إنه «تعايش سلمي» يدعو إليه محمد، أولئك الذين برزوا مبكرين لعداوته وحربه.

ولكن، لقد تركنا في قفزتنا السريعة هذه، مشهد الشروق.

فإلى وراء قليلاً؛ لنرى الأمل، وهو يولد.. والرُّشد، وهو ينمو.. والرسول، وهو يتسلم وثيقة الاصطفاء، وأمر التبليغ..

نحن الآن في شِعْب من شِعَاب مكة.. ومكة المتوقدة عاكفة على حياتها..

ويولد طفل يتيم، تتلقاه ذراعا أمّ حانية، لا تلبث هي الأخرى أن تغادر دنياها، تاركة وليدها في السادسة من عمره غضًا، وحيدًا..

ويشب الطفل، شبابًا سريعًا نديًا.. وتقع عيناه على أصنام قومه.

وعلى الناس الحافّين بها، الجاثين أمامها، فيأخذه تفكير ذاهل شديد:

أتكون هذه الحجارة المركومة آلهة حقًّا..؟!

ويستأني طويلاً، قبل أن يقبل عليها، أو يعرض عنها، ويأوي إلى نفسه مفكرًا، ثم ينتبذ منها مكانًا قصيًا، بعيدًا عن اللجاجة، والمؤثرات، هناك في دار حراء، حيث يستجمع قُوى إلهامه، ويصقل كل استعداداته الروحية، والعقلية، ويهيب بكل القُوى أن تخف لنجدته، وهدايته، إن كان ثمة لهذا

سبيل.

ثم يعود إلى البيئة.. إلى الأصنام، والضوضاء، والتقاليد والأساطير، وكل ما يشكل حياة الناس، ويطويهم في موجات زحامه.

ويستعرض ذلك جميعه ببصيرة مجلوّة، قد أرهفها طول التعبد، وصفاء الوحدة، وإلهام العزلة المفكرة.. وتقترب حقائق الأشياء من بصيرته، فيراها أكثر مما يراها سواه.

ويعود إلى «الغار» في ميقاته المعلوم، وينثر بين يدي وعيه، تجاربه الجديدة، وكلما بزغت له خاطرة، لم يتوار منها، ولم يهرب من مسئولية تمحيصها، والتفكر فيها.

فثقته بنفسه جد عظيمة.. وحياته، وسلوكه، وعلاقاته الصادقة بالحياة، تشد زناد الثقة فيه إلى أقصاه..

ليس في قريش من لا يدعوه «الأمين»..

وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل، وعظمة النهج، واستقامة الضمير..

وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبينة مفتوحة، لا التواء فيها، ولا مخاتلة إنه «نسيج وحده» في غير تصنع..

- الناس يعكفون على أصنام لهم..

أما هو، فشيء في روعه، يقول له: قف!

- الناس، يلعبون الميسر، ويستقسمون بالأزلام، ويظلمون الأرملة، ويأكلون مال اليتيم..

أما هو، فشيء في روعه، يقول له: ارجع!

- الناس يعيشون بالوراثة والمحاكاة، شعارهم «إنا وجدنا آباءنا كذلك

يفعلون».

أما هو، فشيء في روعه، يقول له: فكِّر!

إذن، فهو إنسان يحيا داخل هالة عظيمة مضيئة من انبعاثات ممتازة متفوقة.

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة، ومارسها منذ البدء، في مستوى عال، لا يطيقه سوى أولي العزم من الرجال.

ومع الأيام، تنضج شخصيته، وتتفتح رؤاه.

وينمو وعيه الداخلي نموًا تضيق به ذاته، وتحتشد قوى نفسه، وإلهامه، وتفكيره وعزيمته، احتشادًا، يتعاظم كل تلبُّث، وكل أناة، وكل انتظار.

ويهلُّ عليه، ما كان يرجو وينتظر.. أذان من الله بالبدء.. ويقين بأنه صاحب الدور، ورائد المرحلة..

وذات يوم.. ولنصغ إليه، يصف ما حدث:

«.. جاءني الملَك فقال: اقرأ.. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني، فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم».

وهكذا، يلتقي «الرسول» بدوره، ويحمل الأمانة الكبرى، ويمضي في حذر أول الأمر.. ثم يجهر بها ويصدع حين يقول له ربه الذي اختاره واصطفاه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر:٩٤]

ولسوف يواجه من الأذى، ومن الكيد، ومن العناد ما يزيده إصرارًا وعزمًا.

ولسوف ينتصر في معركة الإغراء، انتصارًا نبيلاً، تاركًا كلماته الهادية العظيمة، درسًا لا يرتجف ضياؤه:

«والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه»..

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة..

فإذا أحاطت به العداوات الباغية في مكة، هاجر بدعوته إلى المدينة.

وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة، الطاهرة، العادلة التي يبشر بها إلى القتال، قاتلهم غير معتد، ولا مسرف..

فإذا أظفره الله بهم أخيرًا، سارع إليهم بالنجدة وبالأمن:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»..

وعلى طريق حياته الباهرة، سترتسم، إلى الأبد آثار قدمي رجل.. وإنسان.. ورسول..

وبعد.. فماذا كان محمد والمسيح يريدان..؟

ما الغرض العظيم الذي سارا على طريق الرب، ليبلُغاه وليحققاه.. لقد بَشّرَا كثيرًا بمثوبة الله.. وخَوَّفا كثيرًا من عقابه.. وأذّنا في الناس بشعائر، ومناسك، وعبادات..

فهل كان هذا وحسب، غايةَ سعيهما.. أم كان أسلوبًا ووسيلة لحمل الناس على إدراك شأوٍ بعيد، وأمر جليل؟

لقد قال المسيح: «جئت لأخلص العالم»..

وقال محمد: «إنما أنا رحمة مهداة»..

فماذا كانا يعنيان..؟

من أي شقاء، سيخلصنا المسيح..؟

ومن أي عناء، سيرحمنا محمد.؟

وفي التحليل النهائي لنهجهما ولمواقفهما الزاخرة المثابرة.. ماذا سنجد، هناك من لُبَاب خالص محض..؟؟

وبعبارة واحدة:

ماذا كانت وجهتها؟..

أما أنا فأقول:

كانت، إنهاض الإنسان.. وإزهار الحياة..



الفصل الرابع

معاً من أجل الإنسان



الإنسان..

هذا الاسم، ذو الرنين الصادق، الفاتن، المُثير..

هذا الكائن، الذي اؤْتُمِنَ على أمانات الحياة وواجباتها..

هذا المسافر، الذي لا يضع عصاه عن كاهله لحظة، والذي يُوَلِّي وجهه دَوْمًا شطر كمال بعيد..!

هذا الإنسان، في عمله وجهله.. في ثرائه وفقره.. في حريته وأغلاله.. في تقواه وفجوره.. في صحته وسُقْمه.. في ألمه وأمله.. في عظمته وبُؤْسه..

كيف تراءى لمحمد، وللمسيح؟

ما نوع الواجبات التي حملاها تِجَاهه؟

ما الأغلال التي حطَّماها عنه؟

ما الانتصارات التي حقّقاها له؟

من هذا المَدْخل سنمضي، سائرين وراء ضياء باهر، يقودنا نحو ما يُهمنا اليوم معرفته من رسالة عيسى، ورسالة محمد..

ولسوف يكون من حسن حظ الإنسان – في محنته القائمة – أن يبصر عناية الله به إلى كل هذا المَدَى الذي لم يكن يَحدسه، وَيخاله، كما سيكون من سوء حظ أعداء الإنسان، أن يظهر للناس حقيقة موقف الرسولين الكريمين، من الإنسان، ومن حقوقه في هذه الحياة.

قرأتم أن المسيح رفض مُلْك اليهود، كما رفض الإذعان لإرهاب

رؤسائهم، وطلب إليهم أن يخلّوا بينه وبين كلمة الله، يريد أن يقولها.

وقرأتم أن محمدًا رفض أن يعطى الشَّمس في يمينه، والقمرَ في يساره، على أن يترك الأمر الذي من أجله جاء..

فما الكلمة التي قالها المسيح، وحرص أعظم الحرص على أن يقولها؟..

وما الأمر الذي آثر محمد تبليغه، على مُلْك يحده الشمس، والقمر؟

إنهما لم يجيئا بدعوة مجردة، بل بدعوة ذات موضوع حافل عظيم.

فماذا كان الموضوع..؟

لقد كان الإنسان، وكان الحياة..

وأول ما يبهرنا في عنايتهما بالإنسان، ذلك الترديد المُمْعِن لاسمه، والحفاوة الصادقة به.

فالمسيح ينعت نفسه بأنه «ابن الإنسان» ويكررها كثيرًا.

«إن – ابن الإنسان – لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص»..

«ها نحن صاعدون إلى أورشليم، و – ابن الإنسان – يسلم إلى رؤساء الكهنة»..

«لا يذقون الموت حتى يروا – ابن الإنسان – آتيًا»..

«ومن قال كلمة على – ابن الإنسان – يُغفر له»..

* * *

«لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان»..

«إن – ابن الإنسان – ماض، كما هو مكتوب عنه»..

* * *

«كذلك يكون – ابن الإنسان – أيضًا لهذا الجيل»..

❁ ❁ ❁

ويتحدث القرآن الكريم المنزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام.

يتحدث عن الإنسان، فيعطيه صفته الحقة، كَمِحْوَر لنشاط النبي، وموضوع لرسالته:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:٤]..

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٧]..

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج:١٩]..

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]..

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:٨٣]..

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس:١٢]

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤]..

❁ ❁ ❁

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء:١١]..

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:٧٢]..

ألستم تجدون لتكرار كلمة «الإنسان» سببًا وثيقًا من الحنان والبر، ومن العناية، والاهتمام، يصله بالله، وبمحمد رسوله؟

إن الإنسان، هو موضوع الرسالة إذن، رسالة محمد، ورسالة المسيح.. ونحسب هذا من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تقرير..

وإلا، ففيم كان مجيء الرائدَيْن الشاهقَيْن والرسولين الكبيرين؟

- ولأنهما بُعثا من أجل الإنسان.. كانا إنسانَين.. كانا رجلين من البشر.. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم.. يأكلان الطعام، ويمشيان في الأسواق.

ولم يجيئا مَلكين.. لم يجيئا من عالم غير عالمنا، ولا من طبيعة غير طبيعتنا، بل لم يُخلَقا في خَلْقٍ يغاير خلقنا.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء:٩٥]

هكذا يقول الله سبحانه، وهو لم يُنزِّل ملكًا؛ لأن الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة.. الإنسان الذي حمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها، وتنحَّى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه في سباق التطور العظيم.

الإنسان هذا، خليق بأن يتلقى من نفسه، الدرس والمثل.. وإذن، فلتأته رُسُله منه..

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة:١٢٨]..

- ومن هنا، يبدأ توقير محمد والمسيح للإنسان.

يبدأ من إمعانهما الكبير في توكيد بشريتهما، وإعلان إنسانيتهما، ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دومًا..

ولقد كانا، وهما يرفضان الشطط في إطرائهما.. والغلو في توقيرهما إنما

يقرران القيمة الحقة للإنسان..

كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشريتهما:

أيّ مقام هناك أسمى وأعظم، تريد أن تذهب بنا إليه..؟!!

وماذا فوق الإنسان من خَلْق..؟

الملائكة مَثلاً..؟

إنهم في خدمة الإنسان الصالح الكادح..

وحين أراد الله أن يصطفى لنفسه خلفاء في الأرض، تعالت ترنيمات الملائكة، ضارعة، مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ في هذا الاصطفاء..

لكن الله رمق «الإنسان» بعينٍ حانية، وأشار نحوه في حب غامر وقال:

هذا هو الخليفة..!

إذن، فالإنسانية، هي الجنسية المشرَّفة التي يحملها المسيح، ويحملها أخوه، وهما بها جدُّ فخورَيْن.

عيسى يقول:

أنا ابن الإنسان.

ومحمد يقول:

أنا بشر مثلكم.

ويؤكدان هذا المعنى أكثر، وأكثر، حين يَنْهى المسيحُ من أطرى صلاحَه فيقول له:

«من قال إني صالح؟! ليس من أحد صالح سوى واحد، هو الله»..

ويطلب إلى تلامذته ألا ينعتوه بالمسيح..!

ويَنْهَى الرسولُ أصحابَهُ حين يقولون له: أنت سيّدنا، ويقول لهم:

«لستُ سيّدًا لأحد؛ إنما أنا عبد الله ورسوله».

كان حرصهما على أن يظلا في وعي الناس مجرّد بشر، اعتدادًا بدور الإنسان، واعتزازًا بالبشرية نفسها، ورغبة أمينة في الحياة داخل إطارها، وطبيعتها..

حتى معجزاتهما..

لم تكن تعني – كما يحلو لنا أن نفهم – أنهما غادرا صفوف البشر.. فكل عمل عادي.. يتم بأسلوب غير عادي، يشكل معجزة.. وإن ذلك ليبدو واضحًا في أعظم معجزات محمد وصاحبه..

فأعظم معجزات محمد، هي محمد نفسه..

وأعظم معجزات المسيح، هي المسيح ذاته.

فماذا هناك..؟؟

إنهما، بشرٌ مثلنا، يعيشون على ذات الأرض، ويشربون من نفس الماء، ويأكلون من نفس الطعام..

ولكن الأسلوب الذي اتبعاه في نسج حياتيهما العظيمتين، لم يكن أسلوبًا عاديًا..

بل كان متفوقًا، وخارقًا.. فكانت المعجزة.

والقرآن – مثلاً – كلام مَلفوظ.. ومسطور، والكلام شيء عادي؛ لأن البشر جميعًا يتكلمون.

ولكن، لأن هذا الكلام القرآني جاء بأسلوب غير عادي، فقد صار معجزة، ومعنى أنه جاء بأسلوب غير عادي: أن الإنسان الذي جاء به أُميّ، لا يقرأ ولا يكتب.. وأنه بذل في إعداد نفسه ورُوحه كي يستطيع تلَقّيه عن ربه، جهودًا، أكثر من مضنية، وأكثر من خارقة.

والمسيح، حين يشفي المرضى اليائسين، وحين يرد إلى الحياة مَن اقتربوا

من غيبوبة الموت، إنما يمارس عملاً عاديًا من أعمال البشر، وهو التطبيب، والعلاج.

ولكن، لأن شفاءه للمرضى يتم بأسلوب غير عادي، وهو لمسة كف أو نظرة عين.. فهنا يكون العمل معجزًا.

أجل.. لقد كانت القوة الخارقة التي يرد بها المسيح العافية إلى المزمنين، والتي يدرأ بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها.. كانت قوة نابعة من ذاته.

ولكن ذاته، لم تكن مثل ذواتنا.. بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور، معبَّأة بطاقات فريدة وهائلة.

وفي حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى، ويجسمه، يرويه إنجيل «لوقا»:

فذات يوم، كان يعبر الطريق، ومعه نفر من تلامذته، واقتربت منه في زحمة الحافّين حوله، سيدة كانت تعاني نزيفًا مزمنًا.. وفي إيمان عميق واثق لمست هدب ثوبه.

وتوقف المسيح عن المسير فجأة، وقال:

- «من الذي لمسني..؟».

ويجيب تلميذه، بطرس:

- «يا معلم! إنها الجموع تضيّق عليك، وتزحمك»..

ويعود السيد المسيح، فيؤكد أن أحدًا لمسه؛ لأن قوة خرجت منه:

- «لقد أحسست بقوة تخرج مني»..!!

قوة تخرج منه..؟؟

أي تفسير عجيب للمعجزة..؟!

لكأنه آت من عقل رياضي، وليس من قلب مسيح..!

إن الإنجيل يتم هذا النبأ، فيخبرنا أن العلة زايلت المرأة المريضة في نفس الوقت.

وهكذا، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة، وإدراك ما حدث حين يقول: إن قوة خرجت مني..

فالذي حدث ساعتئذ، أن رغبة إنسانية، مؤمنة مستسلمة، تعلقت بطاقة بشرية غامرة، طالبة منها العون على الشفاء والخلاص..

جهاز استقبال سَويّ، التحم بجهاز إرسال قويّ، فتلقّى عنه في نفس اللحظة والوقت..

أجل، فلم تكن لمسةَ عابرة مسترخِية مستريبة، تلك التي نَبَّهت المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها وينفصل عنها.. بل كانت لمسة هاتفة، داعية، ضارعة، مبتهلة..

كانت إيمانًا مفعَمًا، يتحسَّس طريقه في ثقة واستنهاض، إلى ملاذ هو وحده - وفي تلك اللحظة بالذات - الأمل الأوحد، والرجاء الأعزّ.

ولقد أراد المسيح أن يؤكد لتلامذته الذين بهرهم شفاء المريضة، أن ليس في الأمر شيء غير طبيعي، فأشار للمرأة قائلاً:

- «إيمانكِ قد شفاكِ..

«اذهبي بسلام»..!!

هذه المعجزات.. لم تكن - كما قلنا قبلاً - خروجًا بالرسولين الكريمين عن صفّ البشرية.

كما لم تكن تغريرًا بالبسطاء، وكسبًا لإيمانهم.. فالذي لا يهديه إلى الإيمان نور الشخصية، وجلال العمل، لن يهديه شيء آخر..

- ثم إن محمدًا، والمسيح، لم يهتمّا بشيء مثل اهتمامهما بأن يُحررا البسطاء

من غفلتهم وسذاجتهم، ويحرِّرا الذكاء الإنساني مما يُوبقه من رواسب الرؤى المغلوطة، والأساطير الموروثة.

لقد خسفت الشمس، يوم مات «إبراهيم» ابن رسول الله.

وقال أصحابه: «إن الشمس خسفت لموت إبراهيم»..

أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول، لو كان مُنتَحِلَ أمجاد..؟؟

بلى.. وليس عليه إلا أن يصمت، ويدع العبارة التي قالها أصحابه تنتشر.. ولكنه لا يفعل.. ولا ينبغي له أن يفعل.. فينادي في أصحابه قائلاً:

- «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله.. لا ينخسفان لموت أحد.. ولا لحياته»..!!

ومثل هذا الموقف العظيم.. موقف المسيح.

حين جاءه «يايرس» رئيس المجمع يُوَلْول، وينكفئ فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة، ويتوسل إليه؛ كي يذهب إلى ابنته التي ماتت ليرد إليها الحياة.

ويدخل المسيح على البنت، وأهلها حولها، ينوحون، ويضجون، وَيُلْقي على الجسد المسجَّى نظرة طاهرة قادرة، فيتحرك الجسد تحت غطائه..

وتتحول الضجَّة الباكية الحزينة إلى دهشة، وفرح، وصياح..

«إن المسيح أحياها»..!!

ولكن الصادق العظيم، يشير إليهم بكفه المضيئة، حتى إذا صمتوا قال لهم:

«إنها لم تمت.. لقد كانت نائمة»..!

تأمّلوا هذين الموقفين جيدًا: موقف محمد من خسوف الشمس.. وموقف المسيح من ابنة «يايرس».

ثم اعلموا أنكم أمام أروع مثل لتكريم الإنسان، ولاحترام عقله،

ولتحريره من غوغائيته وسذاجته.

والرجل العادي..

إن النُّظُم، وإن الحضارات، لتُمتحَن بمدى ما تُقدم للرجل العادي من خدمات، وما تهيئ له من فرصة.. وما تضفيه عليه من تكريم.

ذلك، لأن (الرجل العادي) يمثل المجموع، ويشكّل دومًا أكثرية المجتمع والأمة.

والنظم القويمة، والقوانين العادلة، إنما تُسَنُّ في الحقيقة لحماية (الرجل العادي)، وإرباء حظوظه في الحياة.

وفي المجتمعات التي تقوم على التمايز الباطل، يقع (الناس العاديُّون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والسادة، يلقون الرعب في قلوب غرمائهم وضحاياهم، ويستحوذون في صفاقة وفُجْر على حقوقهم وأرزاقهم.

وفي مثل هذه الأوضاع، تتمثل حماية (الرجل العادي) وتكريمه في إعطائه الأولوية التي يستحقها بكدحه، وبعمله.. ومَنْحِه التقدير الأدبي والمادي الذي يرشحه له طول بلائه.. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتغطرسة النَّهَّازة التي تفتك بالعدل، وبالحق.. وعزلها عن عرشها الزائف المغتصب.

ترى، ماذا كان موقف يسوع، ومحمد.. من الرجل العادي..؟

الإنسان الذي لا حول له من مال، أو جاه، أو منصب..!!

المستضعف، الذي طالما يُتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة..!!

الكادح، الذي طالما يصطنع عرقه نبيذًا، يكرعه الجناة..!

الحق أن موقفهما مع (الرجل العادي) يبهر الألباب.

وسنبصرهما الآن، وهما يجذبان (الإنسان العادي) هذا، ليأخذ مكانه في

الصف الأول.

ثم، وهما يَنهالان على كبرياء الأشراف الكاذبة، فيمحقانها محقًا..!

ولنبدأ بالمسيح:

❁◉❁

هل تبصرون هذا القائم هناك.. وسط هالة من صفاء روحه.. وفي يمينه سفر «أشعيا» يقرأ منه..؟؟

إنه هو، عيسى روح الله وكلمته، فلنصغ إليه:

«روح الرب مسحني؛ لأبشر المساكين..

«أرسلني، لأشفي منكسري القلوب..

«لأنادي للمأسورين بالانطلاق..

«وللعمي، بالبصر..

«وأرسل المُنْسَحِقِين في الحرية»..!

وهذا أيضًا.. المطلُّ من بين الحشود الحافّة حوله.

إنه هو، يتحدث:

«طوباكم أيها المساكين؛ لأن لكم ملكوت الله».

«طوباكم أيها الجياع الآن؛ لأنكم تشبعون».

«طوباكم أيها الباكون الآن؛ لأنكم ستضحكون»..!

إن المسيح يحدد مكانه في المجتمع حين يستشهد بكلمات أشعياء، ويتحدث بها كنبراس له، ومنهاج.

إنه مع المساكين؛ كي يبشرهم.

مع منكسري القلوب؛ ليجبر قلوبهم.

مع المأسورين؛ كي يحطم أغلالهم وَيُطلقهم.

إنه مع (الإنسان العادي) الذي ليس معه من مال الدنيا، ولا من جاهها، ولا من سلطانها، ما يرد إليه حقوقه التي اغتصبها منه الذين هم فوق.

لقد سلّح الناس العاديين بأقوى الأسلحة: الإيمان والأمل، حين قال لهم بلسان الرب القدير: طوباكم..

وقفز بمكانتهم الاجتماعية إلى الصَّدارة، حين جعلهم من الأهمية إلى حد أن يرسل الله من أجل حمايتهم، وتصحيح أوضاعهم، رسلاً..

«روح الرب مسحني؛ لأبشر المساكين»..

«لأنادي للمأسورين بالانطلاق»..

إن هذه العبارة وحدها: «أنادي للمأسورين بالانطلاق» لتَمثل المفهوم الثوري لدعوة المسيح، وتشير إلى الخطة الكاملة التي كانت ستتبدَّى خلال نضاله من أجل الجماهير المهضومة.. لو قدّر لأيامه على الأرض أن تطول.

هذا الروح الكبير، الذي كان يعبر الطريق، باحثًا عن مفلوج، ليشفيه.. أو مصروع، ليداويه.

والذي يوصي كل مؤمن به؛ فيقول:

«وإذا صنعت ضيافة، فادعُ المساكين، الجذْع، العرج، العمي.. فيكون لك الطُّوبى»..!

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة، والعصر، وضْعَ (الرجل العادي) في مجتمع ينتهك حقوقه ويزدريه.

لكن هذا، لا يكفي.

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرور المرتعش - خليق بأن يذهب بَدَدًا تحت وطأة الإذلال الموصول، الذي يصبُّه عليه صَبًّا، السادةُ الأعْلَوْن.

إذن، فلحساب (الرجل العادي) يقرر المسيح أن يخوض معركة كبيرة مع أولئك الأشراف.

أولاً: ليزجر غرورهم، ويفتحَ أعينهم على آثامهم ومظالمهم.

وثانيًا: ليُغْري بهم أولئك المستضعفين الذين يترنَّحُون؛ فَرَقًا منهم وخوفًا.

ولقد فعل..

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة مميتة: طبقة الكتبة، وطبقة الفرّيسيين.

وأمام حشد هائل من الناس، واجههم ذات يوم.. ووقف «ابن الإنسان» يتفجّر ذكاء، وعُنْفوانًا، وصِدْقًا.

وقف وحده، أعزل.. لا مال، ولا سلاح، ولا عصبية، ولا حزب.

وهذا، هو الدرس.. فلو أنه قويّ، غنيّ، مُدَجَّج بالأنصار المتحفّزين، ما تركت كلماته المقبلة في أنفس المستضعفين أثرها المرتجى، ولا حركت فيهم إرادة التحدّي، والمقاومة.

إن الدرس لنافع، حين يُدَغدغ كبرياءَ العصابة المستعلية، رجلٌ يُمثل حالة الجماهير تمامًا..

أعزل، مثلما هي عزلاء..

فقير، مثلما هم فقراء..

مضطهد، كما هم مضطهدون..

ولقد وُجد الرجل..

وُجد روح الله وكلمته..

وها هو ذا..

الجموع من حوله، وقد تعلقت به أبصارهم في انبهار ووَجل..

ودهاقنة الطبقة المستعلية، أمامه، وجهًا لوجه.. لا.. بل وجوهًا منكسرة ذاوية.. أمام وجه مُتهلل، وجَبْهة عالية.

وفي سخرية ماحقة يبدأ حملته:

«على كرسيّ موسى..

«جلس الكتبة، والفرّيسيون..!

«فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه، فاحفظوه.. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا.. لأنهم يقولون ما لا يفعلون»..!!

وتنبعث همهمة استنكار من جانب السَّادة، ولكنها تتلاشى سريعًا في خضم الإعجاب الذي جاء من جانب الحشود..

ويستأنف حديثه عن أشراف «أورشليم» الممثلين أمامه في الكهنة، والكتبة، والفرّيسيين، فيقول:

«إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة، عسرة الحمل، ويضعونها على أكتاف الناس.. وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم..

«وكل أعمالهم يعملونها، لكي ينظرهم الناس.. فيعرضون عصائبهم، ويعظمون أهداب ثيابهم.. ويحبون المُتَّكأ الأول في الولائم.. والمجالس الأولى في المجامع.. والتحيات في الأسواق.. وأن يدعوهم الناس: سيدي.. سيدي»..!!

ثم يندفع صوته في هدير، حارّ، متوهج..

وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحِمَى، والنجدة، والملاذ..

«..لكن ويل لكم، أيها الكتبة والفرّيسيون المراءون، لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدَّام الناس، فلا تدخلون أنتم، ولا

تَدّعون الداخلين يدخلون..!

«ويل لكم، أيها الكتبة والفرّيسيون المراءون.. لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعِلّة تطيلون صلواتكم.. لذلك تأخذون دينونة أعظم»..!

وتختلج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم.. فيلقفها المسيح، وينفخ فيها من روحه لتنمو.. ثم يدمدم بسخريته على السادة:

«ويل لكم، أيها القادة العميان..

«القائلون: من حلفَ بالهيكل، فليس بشيء.. ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم..!

«أيها الجهال والعميان،

«أيُّما أعظم.. الذهب..؟ أم الهيكل..؟

«ويل لكم، أيها الكتبة، والفريسيون المراءون.

«لأنكم تشبهون قبورًا مُبَيَّضة.. تظهر من خارج جميلة.. وهي من داخل مملوءة عظام أموات..

«وهكذا أنتم أيضًا، من خارج تظهرون للناس أبرارًا، ولكنكم من داخل، مشحونون رياءً وإثماً»!!

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرّفي الشريعة ومستعبدي الإنسان..؟؟

كانت لحساب «الناس العاديّين».. لحساب الإنسان، وكرامته وحقوقه..

لحساب بعثه العظيم الذي جاء المسيح يمهد له الطريق، وينحي عنه أولئك الذين «يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل، ويضعونها على أكتاف الناس».

❁ ◉ ❁

والآن.. إلى رفيق عيسى، وأخيه.. إلى «محمد» لنبصر موقفه مع (الرجل العادي).. وموقفه من مستغلّيه..

ولسوف يبهرنا بمثل ما بَهرنا به المسيح..

ولا بدْع.. فروحاهُما العظيمان، سُقِيا بماء واحد، واصطنعهما لنفسه أحسن الخالقين..

والتجربة لدى الرسول، رائعة، وحاسمة..

إذ نشهد فيها الرسول نفسه. وهو يَتَلقى من ربه الكبير خطَّة العمل، والنهج الذي يحدد واجبه تجاه (الرجل العادي)..

كيف..؟؟؟

إليكم النبأ العظيم.

عندما أذاع «محمد» دعوته، اقترب منه الفقراء والمستضعفون، شأن كل دعوة حية، طالعة، منقذة..

وذات يوم، طرق بابَ الرسول مبعوث لأشراف مكة وكبرائها، يقول له:

«يا محمد، إن أشراف قومك يرون أن يستمعوا لك، ولكنهم لن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقرائها.. فإن شئت أن تجعل لهم يومًا، ولأتباعك يومًا..»

والرسول بطبعه، لا يحمل في نفسه، ولا في تفكيره، ولا في سلوكه، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز.

وهو إذن لا يرى بأسًا في أن يجيب هذه الرغبة، حتى يربح الإيمانُ والفضيلة، تلك النفوس الشاردة، وعندئذ، سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك ليجالسوهم، ويزاملوهم، بعد أن تَلين قلوبهم لذكر الله

وما نَزل من الحق.

ويطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه في غد؛ حيث يكون قد فكر.. أو يكون قد جاءه من الله وحي.

وفي غد، يرجع مبعوث الأشراف في ميعاده؛ ليتلقى من الرسول رفضًا أكيدًا..

ماذا حدث..؟

لقد جاءت كلمات الله، تحمل للرجل العادي أعظم تكريم.

ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلسًا غير مجلس الناس العاديين..؟؟

لا.. لن يكون لهم ذلك أبدًا..

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

***

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام:٥٢]..

انظروا..

إن رغبة السادة هذه، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها ضياع حق للآخرين.. ثم إنها قد تفضي بقوم ضالين إلى الهداية، والخير.. وعلى الرغم من هذا، يرفضها الله في حسم، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التي لا ينبغي للرسول أن يريدها..!

إن روعة هذا المشهد تتمثل في كشفه عن مكانة الرجل العادي في عين

الله.. وفي تبيانها غيرة الله على ذلك الإنسان العادي.

إن الله سبحانه، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان، مترعة بالمحبة، حين يقول لنبيه:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨]..

ويعتبر التمايُز، طردًا لهم وظلمًا..

فيقول لرسوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام:٥٢]..!!

ويسير الرسول وَفْق هذا التعليم السديد الرشيد العظيم.. فلا يكاد يبصر الناس العاديين هؤلاء، قادمين نحوه، في أي ساعة.. في أي يوم، حتى يتلقاهم بحفاوة، ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه، ويقول:

«أهلاً بمن أوصاني بهم ربي».

الإنسان العادي إذن. الذي يمثل جمهرة الأمة والشعب في كل بلد. كان وصية الله لمحمد، مثلما كان وصيته سبحانه للمسيح.. مثلما كان وصيته لكل نبي، وكل رسول.

وكما رأينا المسيح يعمّق هذا المعنى في وعي تلامذته، نرى الرسول يعمقه في وعي أصحابه.

ذات يوم، يمر به رجل بادي الفقر والمسكنة،

فيسأل النبي جلساءه:

«ما تقولون في هذا»؟

فيجيبون: «هو والله خليق إن خَطَب ألا يُزَوَّج، وإن تكلم ألا يُصْغى إليه».

ويصمت الرسول حتى يمر رجل آخر، عليه مخايل النعمة ومظاهر

الثراء.. فيسألهم:

«ما تقولون في هذا..»???

فيجيبون: «هو والله، حَرِيٌّ إن خطب أن يزوَّج، وإن تحدّث أن يُسْتمع له»..

فيقول لهم الرسول:

«والذي نفسي بيده، إن الأول، لخير من مِلْء الأرض من مثل هذا»..!

هنا رسول، يحرر قيمة الإنسان من زيف، وزور، يحررها من الأوضاع الكاذبة المفتعلة، ويردها إلى مكانها الحق، في جوار الخير، والعدل، والحق..

ولا يترك الرسول فرصة لتكريم الناس البسطاء العاديين، إلا اهتبلها.

يقف بين يدي الله داعيًا ضارعًا:

«اللهم أحيني مسكينًا، وأمِتْني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين».

وإذا كانت «الجنة» تمثل في دينه ودعوته، أرفع المثوبات، وأبقاها، وأقصى الدرجات العُلى، وأسماها، فقد أراد عن هذا الطريق، أن يكرم (الرجل العادي) تكريمًا، يجعل الأشراف والسادة يتطامنون، ويتمنون لو لم يكونوا أشرافًا، ولم يكونوا سادة..

ماذا قال «الرسول» في هذا المقام..؟

قال:

«قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين».

وهو يبحث دومًا عن الناس العاديين، ليجالسهم، ويقول:

«ابغوني – أي: اطلبوا لي – ضعفاءكم».

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم، وكيف أنهم الكادحون، المنتجون للثروة، وللدخل القومي.. فيقول:

«إنما تُنْصَرون، وتُرْزَقون بضعفائكم».

والرسول حين يستعمل كلمة «مسكين» وكلمة «ضعفائكم» لا يعني بالمسكنة، الهوان.. ولا يعني بالضعفاء: العجزة..

وإنما يعني الناس البسطاء الذين يأخذون في «الكادر» الاجتماعي مكانًا بسيطًا متواضعًا..

ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادي على تمجيده، وتمجيد تواضعه، وحياته العامة المتعففة.. بل شاركه هذه الحياة..

لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء..

فالإنتاج محدود، والدخل قليل، فأخذ الرسول عليه السلام مكانه إلى جوار الأكثرية الفقيرة..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغد، بنصيبه من الفيء، والغنائم، وبالهدايا التي لا تنقطع قوافلها.. ولكنه أبى.. وجعل ذلك كله أو معظمه، من حظوظ أمته وأصحابه.. لا حبًّا في الجوع، ولا اختيارًا للفقر.. ولكن مشاركة للأكثرية، ومعاناة لما تعانيه، تقول السيدة عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم:

«كان يأتي علينا الشهر، ما نوقد فيه نارًا.. إنما هو التمر، والماء»..

وتقول:

«ما شبع آل محمد من خبز البُرّ ثلاثًا، حتى مضى لسبيله»..

وتقول:

«ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وإحداهما تمر»..

ويقول هو، عليه الصلاة والسلام:

«لقد أُخِفْت في الله، ما لم يخف أحد.. وأوذيت في الله، ما لم يؤذَ أحد.. ولقد أتى عليّ ثلاثون ما بين يوم وليلة، وما لي ولبلال من الطعام، إلا شيء يواريه إبط بلال»..!!

مرة أخرى.. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائمًا.. بل كانت طريقة مختارة، وخطة مقصودة.. ولقد فُتحت عليه دنيا من الخيرات، فما غيَّر من سلوكه هذا شيئًا.. بل كان حين يجيئه الفيء ويوزعه بين أصحابه، يرجئ ابنته «فاطمة» ويقول: «حتى يكتفي الناس أولاً»..!!

وكثيرًا ما كانت الأعطيات تتقاصر دون حاجات الآخذين.. ولا تنال فاطمة منها منالاً، فترضى، وتصبر؛ لأن أباها العظيم قد وضع لأهل بيته شعارًا فحواه «أن محمدًا وأهله، هم أول من يجوع، إذا جاع الناس.. وآخر من يشبع، إذا شبع الناس»..

لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصيصة إذن.. لا.. ولا كان تمجيدًا للفقر الذي جعله الرسول في بعض أحاديثه توأم الكفر.

إنما كان:

- تكريمًا للكدح..
- وإعزازًا للبساطة..
- وتوقيرًا للرجل العادي، الذي هو الأمة، والشعب..

❁ ❁ ❁

وللإنسان حقوق كثيرة، لا بد من صيانتها؛ حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض.

وعلى رأس هذه الحقوق جميعًا:

- حق معاشه..
- وحق ضميره..

وإن هذين الحقين ليكادان يلخصان حقوقه كلها، تلك الحقوق التي تفتحت عليها أبصار وبصائر الرسولين الكبيرين الكريمين: محمد، والمسيح.

أما حق المعاش: فيعني تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التي تهيئ للإنسان حياة عادلة، رغيدة.

وهو لهذا، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال والنهب..

وحماية الثروة العامة - التي هي حق الناس جميعًا - من ضراوة المحاباة، ومن كل فنون السرقة، والسفه، والاختلاس..

لقد دمدم المسيح كثيرًا بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرئون عرق الكادحين؛ وحقوق العاملين.

أولئك:

«الذين يأكلون بيوت الأرامل، ولعلة يطيلون الصلاة».

و«الذين يظلمون الفعلة، والحصادين، بينما صياحهم قد وصل إلى رب الجنود».

وإنه لجدير بأن يفعل، وما كان ليترك الظامئين إلى العدل، يعانون جفاف الحلوق، واستعار الهجير، بينما حفنات من المترفين والمستغلين يتبذخون في البحبوحة، والظل.

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع؛ فإنه ليعلم أن عاقبةَ ذلك الخسرُ والوبالُ للأمة التي يعبث فيها هذا التمايز الظلوم..

إنه يقسم الأمة على ذاتها، ويمزقها..

و«كل مملكة منقسمة على ذاتها، تخرب.. وبيت منقسم على نفسه يسقط»..!!

لقد كان الوضع الاقتصادي في الجماعة اليهودية أيام المسيح، رديئًا، وقاسيًا..

كان وكلاء «روما» وتجار اليهود، ورؤساء الكهنة سواءً في التآمر على عرق الكادح، ولقمة الجائع.

ولقد تفتحت عينا المسيح في طفولته، وفي شبابه على السياط الباغية، تسلخ ظهور الناس من أجل ضريبة تأخروا في دفعها.

ولو طال به العمر، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة وقفة طويلة، وحامية.

لكنه رغم السرعة الوامضة التي لبثَها مع دوره العظيم على الأرض، وعلى الرغم من المُنتَهى القريب الذي تعجَّل رحيله، لم يترك ذلك الوضعَ دون أن يصححه بكلمات مضيئة وجامعة.

قال لتلامذته الاثني عشر حين أرسلهم يكرزون بملكوت الله:

«لا يكن للواحد ثوبان»..

وهتف طويلاً بكلمات سلفه الشهيد «يُوحنا»:

«من له ثوبان فليعط من ليس له.. ومن له طعام، فليفعل هكذا»..

وذات يوم، وهو يعبر الطريق وديعًا كأنفاس الزهر في فجر الربيع، لقيه واحد من الناس، وسأله:

أيها المعلم الصالح.. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية»..؟؟

فأجابه:

«لماذا تدعوني صالحًا..؟؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله.

«أنت تعرف الوصايا:

«لا تزْنِ.. لا تقتل.. لا تسرق.. لا تشهد بالزور.. لا تسلب..

أكرِمْ أباك وأُمك».

قال الرجل: «يا معلم! هذه كلها حفظتها منذ حداثتي»..

فأجابه المسيح:

«يُعْوِزُكَ شيء واحد..

«اذهب، بع مالك، وأعط الفقراء»..!!

وهكذا، فإن ابن الإنسان، وهذه دعوته، وهذا منهاجه وسلوكه؛ لا يمكن بحال، أن يقر أي نظام يقوم على استغلال العَرَق، واحتكار الرزق، وتجميد الثروة، وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة..

❁❁❁

ويجيء محمد رسول الله، فيصون حقوق العَمَل، والعرق، بتعاليم تناهت في الرشد، والذكاء:

«أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجفَّ عَرَقه».

«لا تكلِّفوا الصِّبيان الكَسْب.. فإنكم متى كلفتموهم الكسب سَرَقوا».

وحين يكون هذا الأجير خادمًا، يرتفع محمد بمستواه، ويعلو..

«لا يقولن أحدكم: عبدي.. وأمَتي.. وليقل: فتاي وفتاتي».

«.. هم إخوانكم فأطعموهم مما تطعمون، وَألْبِسُوهم مما تَلبسون»..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلالاً، إلا إذا كانت من كَسْب طيِّب.. والكسب الطيب، هو الذي لا مكان بين وسائله، للأنانية، ولا للاحتكار،

ولا لاستغلال الكادحين والعاملين.

ولأموال الشعب، عند محمد حرمة جدّ عظيمة..

إنه ليغفر كل الخطايا، ويتلمس المعذرة لشتى الآثام، إلا لجريمة واحدة، يرفع في وجهها وفي وجوه مرتكبيها قصاصًا مشحوذًا..

هذه الجريمة هي: العدوان على مال الشعب.

انظروا..

أتاه ذات يوم، رجل، نادمًا يعترف في إسفار بجريمة «زنا» ارتكبها..

وبعد أن استمع الرسول لقوله، أراد أن يفتح له على المغفرة، وعلى النجاة نافذة.. فقد لمح من ندمه الضاغط، ومن توبته الصادقة، ما ينبئ بعزم أكيد على الاستقامة.. ومضى يحاول ثَنْيَ الرجل عن اعترافه.. كي يتحلّل هو من إنزال العقوبة به..

ولكن هذا التسامح الرحيب، يكاد يختفي تمامًا؛ ليحلّ مكانه غضب مدمدَم، وقصاص رهيب.. حين تكون الجريمة عدوانًا على أموال الأمة..

كان له - عليه الصلاة والسلام - خادم - اسمه «رفاعة بن زيد».. أصابه في إحدى الغزوات سهم فأنهى حياته..

وبعد انفضاض القتال، أقبل أصحابه عليه يعزونه في خادمه، وقال قائلهم:

«هنيئًا له، يا رسول الله.. لقد ذهب شهيدًا».

فأجابه الرسول في أسى:

«كلا.. إن الشّملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر، لتَشتعل عليه نارًا»..!!

أرأيتم..؟

إن هذه الشملة، ما دامت جزءًا من غنيمة، أوفيء، ليست ملكًا لأحد.. إنها حق الجماعة كلها، حتى ينال كلٌّ حظَّه ونصيبه.

ولقد أخذها الغُلام، وما تساوي أكثر من دراهم قليلة، ولقد خَدَم رسولَ الله ﷺ، ومات شهيدًا.. ومع هذا كله، بقي مطوَّقًا بوزره الصغير.

ولكن، من قال: إنه وزر صغير..؟؟

إنها السرقة.. يستوي فيها القروش الضئيلة.. والملايين الكثيرة. سيَّما حين تكون سرقة أموال عامَّة.

ويعلم الرسول ﷺ يومًا، أن أحد الولاة، قبل هدية.. فيغضب غضبًا شديدًا، ويستدعيه إليه، فيأتي حثيثًا.. ويسأله الرسول ﷺ:

- «كيف تأخذ ما ليس لك بحق..؟؟

ويجيب الوالي معتذرًا:

- لقد كانت هدية، يا رسول الله!!

ويسأله الرسول:

«أرأيت، لو قعد أحدكم في داره، ولم نُوَلِّه عملاً.. أكان الناس يهدونه شيئًا»..؟!

ويأمره أن يرد الهدية إلى بيت المال.

ثم يعزله عن ولايته وعمله.!

هكذا أعطى المسيح، وأعطى الرسول حق المعاش للإنسان، من عنايتهما، ومن تعاليمهما، ما يجعل العمل من أجل التوزيع العادل للثروة.. والتوفير الكامل للرخاء، واجبًا محتومًا على المؤمنين بهما، السائرين على نهجهما.

والآن.. إلى حق الضمير.

❁◉❁

لست أعني بالضمير هنا: الوظيفة النفسية التي تثير في الإنسان الندم على شَرٍّ ارتكبه، أو تحفِزه إلى خيرٍ تقاعس دونه.

إنما نعني بالضمير الإنساني في مقامنا هذا، غاية أبعد، ومعنى أرحب..

نعني به عبارة واحدة موجزة: «الإنسان في وجوده الحقيقي».

هذا، هو الضمير الذي سنرى الآن كيف حمى المسيح حقه، ورفع محمد لواءه.

إن الذي قال: «لم يخلق الإنسان من أجل السَّبت، وإنما خلق السبت للإنسان»، جدير بأن يكون صاحب فضل عظيم في تحرير الضمير البشري..

ولقد قالها المسيح.. ولا أكاد أعرف عبارة تلخّص حقوق الضمير البشري، وتعلن جلاله، أوْفَى من هذه الحكمة الفذّة العظيمة..

ولنبدأ من البداية..

حين تقدمَ المسيح ليعانق دوره العظيم، ويبلّغ رسالات ربه. كان الضمير الإنساني في تلك الرقعة من الأرض التي يسير عليها، مصفدًا بأغلال مبهمة، وثقيلة..كانت «المساومة» تمحقه، وتذلُّه..

فكل سكينة نفس.. كل طمأنينة قلب..

كل مغفرة ترتجى.. كل فضيلة تُلتمس..

كل حرّية تراد - يتقاضى عليها رؤساء الكهنة أجرًا..!!

كل عطاء ديني بثمن.. دخول الهيكل بثمن.. التماس البركة بثمن.. الصلاة للرب بثمن..!!

وهكذا يترنح الضمير في لوثات مساومة موحِلة، ومتاجرة مسعورة.. حتى تحوَّل إلى «آلة حاسبة» كل عملها، أن تحصي موبقات أصحابها.. ثم

وذات يوم، وهو يعبر الطريق وديعًا كأنفاس الزهر في فجر الربيع، لقيه واحد من الناس، وسأله:

أيها المعلم الصالح! ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟..؟؟

فأجابه:

«لماذا تدعوني صالحًا..؟؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله.

«أنت تعرف الوصايا:

«لا تزْنِ.. لا تقتل.. لا تسرق.. لا تشهد بالزور.. لا تسلب.. أكرِمْ أباك وأُمك».

قال الرجل: «يا معلم! هذه كلها حفظتها منذ حداثتي»..

فأجابه المسيح:

«يُعْوِزُكَ شيء واحد..

«اذهب، بع مالك، وأعط الفقراء»..!!

وهكذا، فإن ابن الإنسان، وهذه دعوته، وهذا منهاجه وسلوكه؛ لا يمكن بحال، أن يقر أي نظام يقوم على استغلال العَرَق، واحتكار الرزق، وتجميد الثروة، وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة..

✿ ❁ ✿

ويجيء محمد رسول الله، فيصون حقوق العَمَل، والعرق، بتعاليم تناهت في الرشد، والذكاء:

«أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجفَّ عَرَقه».

«لا تكلِّفوا الصِّبيان الكَسْب.. فإنكم متى كلفتموهم الكسب سَرَقوا».

والآن، يتقدم «روح الله» المسيح عيسى ابن مريم؛ ليحرر ضمير الإنسان في تلك الرقعة، وفي ذلك الزمان من ويلات أسره، وظلمات سجنه.. ولتظلَّ كلماته ومواقفه التي سيحرر بها الضمير، دستورًا حافزًا مضيئًا لكل البقاع.. وكل الأزمان.!

بدأ، فأنقذ الضمير من وطأة المساومة، وحرره من ربقة النفعية.

وإذا كانت، هذه المساومة، تعتمد على التخويف الديني، وتستغلُّ الضعف الإنساني، أدنأ استغلال.. فقد بدأ عمله هنا، ببعث الثقة في رحمة الله ومغفرته.. كما دَغدغ ضراوة الشعور الحادّ بالذنب حين يكون هذا الذنب فرديًا..

أما حين يكون إثمًا «جماعيًا» أي رذيلةَ «طبقة» خاصة، تحقق لهذه الطبقة نفعًا، أو امتيازًا، أو سلطانًا غير مشروع.. فإنه يدمدم، ولا يتسامح..

حدّث الإنسان الضعيف، عن «الأب السماوي».. الرب البار الرحمن الرحيم:

«..من منكم – وهو أب – يسأله ابنه خبزًا، فيعطيه حجرًا.. أو سمكة، فيعطيه حية.. أو بيضة، فيعطيه عقربًا..؟؟

«فإن كنتم – وأنتم أشرار – تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة.. فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات. يهب خيرات للذين يسألونه»..؟؟

وتأتيه الخاطئة، يزفها الكهنة والجلادون فيلقي عليها نظرة طيبة آسية يلمح خلالها الضعف الإنساني الكامن في كل إنسان.. ثم يرفع بصره صوب غلاظ الأكباد، قساة الضمائر، وقد ملئوا أيديهم بالحجارة الحادة تأهبًا لرجمها، فيقول لهم كلماته المأثورة:

«من كان بلا خطيئة، فليرمها بحجر»..!

وعلى الرغم من هدوء كلماته هذه، فقد نفذت إلى أفئدتهم كرصاص مقذوف..

وتمثلت لهم خطاياهم.. وإذ احتواهم ذهول وخزي.. التفت هو نحو المرأة، وسألها:

«هل دانك أحد»؟؟

وأجابته:

كلا، يا معلم!!

فيقول لها، وهو يخاطب فيها الضمير البشري القابع المقدوح تحت وطأة إحساسه المذل بالخطأ:

«ولا أنا أدينك.. اذهبي، ولا تخطئي».!!!

إنه موقف جدير بابن الإنسان.. ابن الإنسان الذي جاء ليخلص الأنفس لا ليهلكها..

وأولئك المدفونون أحياء تحت ركام الخوف، والهول، والخطيئة جديرون بيده الحانية الرحيمة، تأخذ بهم في رفق كبير إلى إله طيب، بر، كريم..

وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم..

أبدًا.. فهو لا يفتأ يذكّر بحق أنفسنا علينا، بل ويعلمنا أن الخطيئة نفسها جزء من الأغلال التي يرسف فيها وجودنا، وعلينا، ونحن نحررها، أن نفطمها عن نزواتها.

«ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وأهلك نفسه أو خسرها»..

لكنه، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم، إنما يفعل هذا بروح أخ

ودود.. لا جلاّد كَنُود..

لكأنه، وهو يرمق «الخاطئة» بنظرته الوديعة، كان يسأل نفسه:

إذا نحينا عن هذه، الخطيئة.. فماذا يبقى..؟

يبقى الإنسان..!!

حسن هذا.. وكل البشر إذن كذلك.

وإذن مرة أخرى، فلا ينبغي أن نسحق أرواحهم وضمائرهم ووجودهم باللوم القاتل.. إنما علينا أن نوقظ فيهم «الإنسان» ليطرد عنهم «الشرير»..

ذلك منهاج ابن الإنسان الذي لم يأت ليطبب الأصحاء. بل ليعالج المرضى والذي لم يأت ليدعو «أبرارًا للتوبة، بل خطائين».

والآن نشهد موقفًا آخر له، فتغمرنا حرارة مودته، ودفء حنانه.. ونجد فيه الأب، والأخ، والصديق.. والقلب الكبير.. الكبير.. السَّمْح.. السَّمْح.

ذات يوم دعاه أحد الفرّيسيين إلى طعامه، وإذ هو جالس ينتظر الطعام، اقتحمت عليه الدار في اضطراب وتعثر، امرأةٌ.

لم تكد تبصره حتى أكَبَّتْ على قدميه تغسلهما بدموعها، ثم تجففهما بشعر رأسها، ثم تعود فتضمخهما بطيب كان معها.

ويجيء الفرّيسي من داخل داره، فيرى المشهد، ويبصر المرأة فيعرفها.. إنها واحدة من بائعات اللذة والهوى..

ويفرك يديه مسرورًا، فهذه فرصة جدّ طيبة لاختبار المسيح، فإن يك مسيحًا حقًّا، فسيعلم الآن، مَنْ هذه التي تلمسه، وتقبِّل قدميه.

ويقرأ المسيح حديث نفسه هذا.. ويلقى عليه، وعلى الدنيا كلها درسًا، موجهًا الحديث إلى تلميذه «سمعان» وكان ساعتئذ معه:

«يا سمعان..

«عندي شيء، أقوله لك».

«قل، يا معلم».

ويستأنف المعلم العظيم حديثه:

«كان لمداين مديونان:

«على أحدهما خمسمائة دينار.. وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يوفيان، سامحهما جميعًا.

«فقل: أيهما يكون حبًا له»؟؟؟

ويجيب «سمعان»:

«أظن، الذي سامحه بالأكثر».

ويقول السيد المسيح:

«بالصواب حكمتَ».

ثم يلتفت شطر الإنسان، شطر المرأة الخاطئة.. التي ذهب عنها «الشرير»، وبقي فيها «الإنسان»، ويقول لها وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء الفجر:

«إيمانكِ، قد خَلّصكِ..

«اذهبي بسلام»..!!!

***

أيُّ قلب ذكي، كان يحمله يسوع؟؟

وأي بِرّ بالضمير الإنساني أسخى من هذا البر؟؟

أي صداقة، تشدُّ أزر الإنسان في ضعفه، أوْفى من هذه الصداقة.؟

وموقف آخر، يُعمق به هذا الفهم في وعي الناس، ويطالبهم أن ينتهجوه، ويتخذوا منه سلوكًا:

يسأله «بطرس»:

«كم مرة يخطئ إليّ أخي، وأغفر له؟ هل إلى سبع مرات»؟

ويجيبه المسيح:

«لا أقول لك: إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة».

وعلى طريقته العذبة السديدة، يضرب مثلاً، فيقول:

«يشبه ملكوت السموات، إنسانًا مَلِكًا، أراد أن يحاسب عبيده..

فلما ابتدأ في المحاسبة، قدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة.. وإذ لم يكن له ما يوفي، أمر سيده أن يُباع هو، وامرأته، وأولاده، وكل ماله، ويوفى الدين..

«فخرَّ العبد وسجد قائلاً: يا سيد! تمهّل عليَّ، فأوفيك الجميع!!

«فتحنّن سيد ذلك العبد، وأطلقه، وترك له الدَّيْن.

«ولما خرج ذلك العبد، وجد واحدًا من العبيد رفقائه، كان مديونًا له بمائة دينار، فأمسكه، وأخذ بعنقه قائلاً: أوفني مالي عليك...

«فخرّ العبد رفيقُه على قدميه، وطلب إليه قائلاً: تمهل عليّ فأوفيك الجميع.. فلم يردّ، بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين.

«فلما رأى العبيد رُفقاؤه.. ما كان، حزنوا جدًّا، وأتوا وقَصّوا على سيدهم ما جرى.

«فدعاه حينئذ سيده، وقال له: أيها العبد الشرير! كل ذلك الدَّيْن تركته لك، لأنك طلبت إليّ.. أفما كان ينبغي أنك أنت أيضًا، ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا»..؟!

هكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلاً وتضامنًا، ضدَّ الآثام، التي هم فيها سواء، وشركاء.. وضد وطأتها الضاغطة على الضمير البشري، حين تُتخذ أداة تحقير له، وإذلال:

«إن فرح السماء بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين بارًا، لا يحتاجون إلى توبة»

«اغفروا إن كان لكم على أحد شيء؛ لكي يغفر لكم أيضًا أبوكم الذي في السموات».

❁ ◉ ❁

وماذا صنع المسيح بثانية الأثافيّ التي كانت تدغدغ الضمير الإنساني وتئوده.. وهي حرمانه من حق الشكوى والمعارضة؟

لقد كان موقفه من هذه عظيمًا وحاسمًا، مثل مواقفه جميعًا..

ولقد رأينا من قبل، كيف واجه رؤساء الكهنة، والكتبة، والفرّيسيين، أمام الحشود من الناس.. وكيف سخر منهم، وناداهم: يا أولاد الأفاعي.. وهم الذين تعودوا تقديسًا مطلقًا، أو شبه مطلق.

لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادي الضمير السجين إلى تمرد مشروع.

وحين كان يأخذ طريقه إلى الهيكل، ووجد الباعة، والصرَّافين، والكُهَّان المحترفين، يملئون رحابه.. أقبل عليهم، يكفأ موائد الصيارفة، ويبعثر سلعهم، وينادي:

«مكتوب: إن بيتي بيت صلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»!

ثم يهز رأسه في غيظ مضطرم ساخر، لكنه وديع، ويقول:

«يا أولاد الأفاعي»..!!

وهو يرسم لتحرير الضمير نهجًا قويًا حين يقول:

«تعرفون الحق.. والحق يحرركم».

الحق يحرّرنا..؟

ما أوفاها عبارة، وما أغناها حكمة!

ليس الهوى، ولا القوة..

إنما هو الحق وحده، القادر على أن يهب الإنسان تحرُّرًا صادقًا، رشيدًا، لا زيف فيه ولا تأويل.

وأمام الحق، لا يجوز لشيء ما، أن يقف، ويتشامخ.

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلاً من سلوكه حين يتحدَّى عقيدة «السَّبت» تحديًا أخاذًا، وبذلك يبعث «حق المعارضة» بعثًا عظيمًا، ويهب الضمير البشري خلاصًا أكيدًا

قرأتم في الصفحات الأولى من هذا الكتاب، أن اليهود تركوا «أورشليم» تسقط في أيدي الغزاة السلوقيين.. عندما اختاروا لمهاجمتها يوم سبت.. وآثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت؛ حيث تمجَّد البطالة وتقدس الراحة..!

وهذا، يشير إلى مدى ما كان لخرافة السبت في أفئدتهم وفي عقولهم من رسوخ وولاء..

إنهم – يوم السبت – لا يكرزون، ولا يعالجون.. ولا يعملون عملاً.

فإذا جاء من يتخطَّى هذا كله، فيكرِّز يوم السبت، ويعظ ويداوي.. فقد ضرب التقاليد الضارية، ضربة قاضية.. وفتح للضمير المفدوح بثقلها الجاثم، وجوّها الخانق الآسن، نافذة على الأفق المشرق، والهواء النقي.

ولقد فعلها المسيح، ولم يقم وزنًا لثورة الكهان، والفرّيسيين، بل جعلهم بسخريته الذكية صغارًا مبهوتين..!

جاءته امرأة في يوم سبت تعاني علة موجعة، فمنحها المسيح من روحه ما غالبت به مرضها، ووجدت بسببه البرء، والعافية.

ووجدها رئيس المجمع فرصة مواتية، ليَشُنَّ على المسيح هجومًا «مقدسًا»..!

واقترب منه، والناس يسمعون، وقال له:

«كيف تبرئ في يوم السبت»..؟!

وأراد المسيح أن يلقنه درسًا لا يفيق منه، فقال موجهًا الخطاب إلى مقامه الكهنوتي الرفيع..!!

«يا مُرَائي..

أفإن سقط حمارك في بئر يوم السبت، أنقذته وأبرأته...

«وحين يمرض إنسان، تتركه في علته إلى يوم الأحد»..؟؟!!

أهناك كلام يقال في هذا المقام، أعذب، وأمتع، وأروع، وأنفذ من هذا الكلام؟

ومرة أخرى، أرادوا أن يلوموه، لأنه يكرز في يوم سبت.. فأجاب بعبارته الجامعة:

«إنما خلق السبت من أجل الإنسان، ولم يجعل الإنسان من أجل السبت»..!

إن الإنسان عند المسيح، هو الشمس التي تدور حولها قوانين المجتمع وتسير..

وإن له عنده لمكانة عظمى..

«الحق أقول لكم..

«إن من قال لهذا الجبل، انتقل، وانطرح في البحر.. ولا يشك في

قلبه.. بل يؤمن أن ما يقوله يكُون.. فمهما قال، يكون له»..

وهو إذ يضع عن الضمير الإنساني بذخ السلطان، وضراوة التقاليد.. وإذ يقيمه في مكان الند والنظير لكل سلطة أخرى على الأرض، فيناقش كما ناقش المسيح، ويعارض مثلما عارض، ويعتزّ بالحق ويتبعه، كما اعتز المسيح به وتبعه...

هو إذ يفعل هذا، لا ينسى أن يوصي تلامذته الذين يتمثل فيهم الضمير الناشئ المستيقظ، ألا يتحولوا يومًا ما، إلى سلطة تعوق الضمير. وتكبله من جديد بما تنتهجه من غطرسة، وضعف، واستعلاء. استمعوا له، وهو يقول لهم:

«أنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم، يسودونهم.. وأن عظماءهم يتسلطون عليهم.. فلا يكون هذا فيكم..

«بل من أراد أن يصير فيكم عظيمًا، يكون لكم خادمًا..

«ومن أراد أن يصير فيكم أوّلاً، يكون للجميع عبدًا..

«لأن ابن الإنسان أيضًا، لم يأت ليُخْدَم، بل ليَخْدُم، وليبذل نفسه فِدْيةً عن كثيرين»..

***

وأما الوصاية التي كان يفرضها على الضمير الإنساني جماعة المتفعين بالتقاليد الغاربة، والأساطير الضحلة، فقد ألغاها المسيح بعبارة حاسمة.. وذلك حين قال واحد من الجمع:

يا معلم، قل لأخي يقاسمني الميراث..

فإذا هو يجيب:

«يا إنسان، من أقامني عليكما قاضيًا، أو مقسّمًا»..؟!

إنه موقف يغني عن مواقف.. وإنها عبارة تمثِّل دستورًا.

إن المسيح بها، يسلم الضمير وثيقة رشده ويدعوه لمواجهة مسئولياته، بعيدًا عن كل وصاية متطفّلة..

* * *

والآن، إلى موقفه من الآفة الثالثة، التي كان الضمير الإنساني يعانيها في البيئة التي جَلجلت فيها كلمات روح الله:

هذه الآفة، هي العنصرية..

كان «شعب الله المختار»!! يعيش - كما قلنا من قبل - داخل عقدته هذه، منطويًا على نفسه، وعلى نواياه الرديئة جدًّا، ضد الناس جميعًا.

ولكن، قبل أن نستطرد في حديثنا هذا يحسن أن نعرف علاقة الضمير بالعنصرية.

لقد ذكرنا حين بدأنا الحديث عن الضمير الإنساني، ما نعنيه بهذا الضمير.

وقلنا: إننا نعني به «الإنسان في وجوده الحقيقي»..

والوجود الحقيقي للإنسان، يعني التعبير الكامل عنه، وفَتْح الطريق أمام طاقاته، وإمكانياته..

والإنسان.. هو: الإنسان.

لا قيمة لاختلاف اللون، واختلاف اللغة، واختلاف القوم.

وإذا كان الناس خلال تطورهم، قد عاشوا أممًا، وشعوبًا.. فإن شيئًا أسمى من ذلك يُظلهم، ويحتويهم داخل إطاره، ويناديهم إلى نفسه.. هو: الإنسانية..

والعائلة البشرية، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان.. ولكن ظهورها كواقع يتطلب ظروفًا، على الإنسان أن يعمل من أجل توفيرها، ومن أجل

تَعَجُّل ميقاتها.. وفي هذا يتحقق المفهوم الصحيح لاسمه، ويتبدى الوجود الحقيقي له.

وإذن، فكل تضليل له عن هذا الهدف، وكل تقاعس به عن تلك الغاية، يعتبر انتزاعًا له من وجوده الحقيقي.. وبالتالي فهو انتهاك لحقوق الضمير الإنساني الذي عَرَّفناه من قبل بأنه «الإنسان في وجوده الحقيقي»..

ونعود لحديثنا الأول.. حيث كنا نقول: إن اليهود كانوا يعيشون في «قوقعة» معتمة، من عنصرية حالِكة.

وتحرير الضمير الإنساني، يتطلب تمزيق هذه القوقعة، وتسريح هذه العنصرية.. أو بتعبير آخر.. فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملاً جليلاً، ونافعًا بالنسبة لتحرير الضمير البشري.

فماذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر..؟

اقرءوا .. واعجبوا..

كان يكلم الجموع يومًا، وإذا أمه وإخوته، يجيئون، ويذهب من يقول له: أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا إليك.

فيجيب:

«من هي أمي.. ومن هم إخوتي»..؟؟!

ثم يبسط كفه المضيئة صوب تلامذته، ويقول:

«ها، أمي، وإخوتي.. لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات، هو أخي وأختي وأمي».!!

❁❁❁

ويسلب من اليهود المفهوم الزائف المزوَّر، الذي يبرِّرون به عنصريتهم المسعورة.

لقد كانوا يعتمدون على وعد يزعمون أن الله أعطاه لإبراهيم.. ويفسّرون هذا الوعد تفسيرًا يرضي غرورهم، وعنصريتهم، وطمعهم في احتلال الأرض كلها..!

كما كانوا يتبذّخون على الناس بأنهم أبناء إبراهيم..

فانظروا، كيف يجردهم من هذه، ويتركهم عُراة..!

«يا أولاد الأفاعي..

«لا تقولوا لنا: إبراهيم أبًا.. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم..

«والآن.. قد وضعت الفأس على أصل الشجرة.

«فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا، تقطع وتلقى في النار»..!

يا لصدق الكلمات، ويا لروعتها!!

إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئًا ما لم تكونوا مثله صالحين، وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر.

ولكن، هناك شجر يعطي ثمرًا جيّدًا فسيبقى، ويزدهر.. وشجر يعطي ثمرًا رديئًا، فهذا له الفأس، تجتُّه، وتبيده.

فيا أيها اليهود، تحولوا إلى شجرة طيبة، إذا أردتم أن تعيشوا، وتحيوا..

أرأيتم..؟؟

أرأيتم إلى «يسوع» العظيم، وهو يكافح العنصرية؛ ليحرر الضمير الإنساني من ربقتها..؟

ألم يكن الدرس في أوانه، وفي مكانه، حين قاله وألقاه.؟

وأليس، يجيء في أوانه مرة أخرى، حين نردده اليوم، ونرويه..؟؟!

وفي مثال عذب فاتن حكيم، يخرج الناس من قوقعة العنصرية..

«ليس أحد يوقد سراجًا، ويغطيه بإناء، ويضعه تحت سرير..

«بل يضعه على منارة، لينظر الداخلون النور»..!

كذلك الأمم، والشعوب..

كل أمة تملك نورًا.. تملك علمًا.. تملك ثروة.. تملك ذكاء ليس من حقها أن تنطوي عليه. بل تضعه على المنارة.. تقدمه في غير مَنّ، وفي غير أذى للبشرية كلها.. فنحن جميعًا عائلة واحدة فوق هذا الكوكب الرحيب.

ويوجه للعنصرية ضربة مباشرة في حكمة يرويها، ومثَل يضربه.. وذلك حين سأله سائل: مَنْ قريبي..؟؟

فأجاب:

«كان رجل مسافرًا من «أورشليم»، إلى «أريحا».. وكان الطريق محفوفًا بأخطار اللصوص، وقطاع الطرق.. فنصحته زوجته بالتريث حتى يجد من يرافقه في سفره.. وإذ ذاك انبرى ابنه الصبي يقول: إن والد صديق له يزمع السفر في نفس الطريق.

«وكان الآخر، سامريًّا، فلم يكد الأب يعلم هذا، حتى انتفض كمن لدغته عقرب، وصاح بابنه: كيف تصادق ابن سامري نجس..؟! أما تعلم أن السامريين تصاهروا مع العجم منذ مئات السنين.؟! إن فعلتك لو عُرفت، لأثرت في عملي وتجارتي!!

«ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير، وسافر منفردًا. فهاجمه اللصوص في الطريق. وسلبوه ماله وثيابه.. وأصابوه بجرح، ثم تركوه بين حي وميت.

«ومر به كاهن؛ فرآه.. لكنه تغاضى عنه. ومضى في طريقه..

«ثم مر به رجل من عشيرته، فتجاهله وواصل سيره.

«وأخيرًا، مر به «سامري»، فعطف عليه، وتوقف، فغسل جراحه ودهنها بالزيت، ثم أركبه على دابته، وأوصله إلى فندق، وأوصى صاحب الفندق أن يعتني به.. ثم نفحه مالاً كدفعة أولى، على أن يتقاضاه بقية النفقات فيما بعد»...

قصَّ المسيح هذه القصة، وضرب هذا المثل، ثم أتبعه بسؤال: «أي هؤلاء، يكون قريبًا للمسافر»؟

فأجاب الرجل:

«من صنع معه الرحمة»!!

هنالك قال المسيح:

«إذن، اذهب، وافعل هكذا».

لقد جمع المسيح في هذا المثال كل ملامح العنصرية الشائهة.. كما ساق في نفس المثال، العنصرية إلى معركة خرجت منها خاسرة منهوكة.. إن يهود «أورشليم» كانوا في قطيعة مع السامريين؛ لأنهم أصهروا إلى العجم!

هنا يكشف المثال عن إيغالهم في العنصرية.

وكانوا – أي يهود أورشليم – يحاربون من بني جلدتهم كل من يعامل السَّامريين، أو يخالطهم..

ولكن، حين وقع الرجل فريسةً لقطاع الطريق، الذين ربما كانوا يهودًا من بني جنسه.. مرّ به «كاهن».. فلم يهتم بأمره..!

ومر به «سامري».. أي: واحد من الذين يمقتهم، ويقاطعهم، ويعتبرهم رِجْسًا ونجاسة.. فسارع إليه، وغسل جراحه، ودهنها بالزيت، ثم حمله على دابته إلى فندق.. حيث استأجر له فيه مكانًا طيبًا مريحًا..!!

هذا، هو القريب، والصديق إذن..

الذي يفعل الخير، ويبذل العون، مهما تكن جلدته.. مهما يكن معدنه وقومه..

وهكذا يزكّي المسيح، الإخاء الإنساني، ويحطم سدود العنصرية المنحرفة، المتبربرة.

فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة.. وإخوة ضعاف، يستحقون العون، وبذل ذات اليد، والنفس.. وإنه ليصوغ هذه الوجهة في نبأ جليل، فيقول:

«.. ومتى جاء ابن الإنسان في مجده، وجميع الملائكة القديسين معه.. فحينئذ يجلس على كرسي مجده.. ويجتمع أمامه جميع الشعوب.. فيميز بعضهم من بعض – أي يعزل صالحها عن فاسدها –

«ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي.. رثوا الملكُوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم.. لأني جعت فأطعمتموني.. عطشت فسقيتموني.. كنت غريبًا فآويتموني.. عريانًا فكسوتموني.. مريضًا فزرتموني.. محبوسًا، فأتيتم إليّ..!!

«فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: متى رأيناك جائعًا فأطعمناك..؟ أو عطشانًا فسقيناك..؟ ومتى كنت غريبًا فآويناك..؟ أو عريانًا فكسوناك..؟ ومتى رأيناك مريضًا، أو محبوسًا فأتينا إليك..؟!

«فيجيب: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخواني هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم»..!!

لم يقل: بما أنكم فعلتموه بقومي.. بشعبي.. بيهود أورشليم..

بل قال: بأحد إخواني.

وإخوانه - كما قال من قبل - هم الذين يعملون مشيئة الرب، بغضِّ النظر عن جنسيتهم، وأرُومتهم..

ومشيئة الرب: أن يعيش الناس إخوانًا.. أحرارًا.. خيّرين.. سعداء..

هذا - في إيجاز - هو موقف المسيح من الضمير الإنساني.

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله؛ لنطالع موقفه من الضمير الإنساني أيضًا..؟؟

وإنه لموقف باهر، وعظيم.

***

«هَلاَّ شَقَقْتَ عن قلبه»..؟

لوكنا هناك - ومحمد رحمة الله للعالمين - يلقي هذه العبارة، لرأينا مشهدًا عجبًا..!

ولرأيناه، وهو ينشئ لحقوق الضمير الإنساني «برج حراسة» شاهق الارتفاع، محكم النظرات..

لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحًا بوطأة آفات ثلاث:

- المساومة والتخويف.
- الإذعان الذي يحظر عليه النقاش والمعارضة، ويُلزمه بالخضوع لوصاية منهكة..
- العنصرية التي تحرمه من تحقيق وجوده الصحيح، داخل إخاء إنساني رحيب.

وأمام هذه الطواغيت الثلاثة، التي رأينا - قبلاً - كيف أبلى المسيح في مكافحتها، وقف محمد ليُجهِز عليها..

ولسوف يمضي كما مضى أخوه عيسى.. يرسل في مِثل سنا الفجر،

تعاليمه، ويدعو في رفق لاحترام الضمير.. وتَرْك الإنسان يحيا داخل وجوده الحقيقي..

وحين يتطاول الشر أمامه، ويتشامخ، فلن يدعه يتمكن منه.

ويعتاق زحف النور الذي معه.. بل سيلقاه بالجواب الأشَدّ.. ويضع رأسه العنيد تحت حد السيف.

وحتى حين يتمثل هذا الشر في قوى عارمة رهيبة، لإمبراطوريتين كبيرتين، كفارس، والروم.. تواصل دعوة محمد زحفها لمطاردته.

ومن خلال هذا كله.. التعاليم المسالمة، ومعارك المقاومة.. تبزغ حقوق الضمير على نحو جليل وفَذّ.

«ولنبدأ من البداية..

كان الناس يعبدون الأصنام، ويستقسمون بالأزلام، ويزجرون الطير؛ ليستنبطوا منها في سذاجة أمر مستقبلهم، وخفايا غيوبهم،

وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس.

ماذا فيهم سيحرره..؟

سيحرر عقولهم من الخرافة..

ويحرر وجداناتهم من الإفك..

وينقذ وجودهم من الضياع..

وينشر دعوته، ويبلغ رسالة ربه.. ويصير له أصدقاء مؤمنون، وأعداء مكذبون.

وذات يوم، يجيئه أحد أصحابه مستأذنًا في طرد واحد يعتقد أنه منافق يتظاهر بالإسلام ليؤذي المسلمين، ويخفى في نفسه موجدة وشرًّا..

وتقدم من الرسول يعرض رأيه.. طرد هذا الرجل من صفوف الجماعة..

لأنه يضمر لها شرًّا..!!

يضمر شرًّا؟!

لكن، أيّ تطفل على سرائر الناس هذا..؟

وأية رقابة على الضمير الذي جاء محمد ليساعده على النهوض.؟

ويسأل الرسول ﷺ صاحبه:

- «هلا شققتَ عن قلبه»؟!

ويعود الرجل فيتكلم:

يا رسول الله، إنه يخفي في نفسه غير ما يعلن!

ويجيبه الرسول ﷺ:

- «إن الله لم يأمرني أن أشق صدور الناس لأرى ما فيها»!

عبارة وجيزة، صيغت في بساطة ويُسْرٍ، لكنها تحمل مضمونًا يشكل دستورًا هائلاً، وحافلاً.. يحمي الضمير، ويضع حريته بمنأى من التقحم والافتيات..

وفي هذه البداية المشجعة، تتمثل نقطة انطلاق الضمير في شريعة محمد..

فهذه الرعاية لحرمته، والتقدير لحريته، لا يمنحان تدليلاً له، ولا إفلاتًا لزمامه.. بل ليتعود حمل المسئولية واختيار المصير..

«يا فاطمة بنت محمد!

«اعملي؛ فإني لا أُغني عنك من الله شيئًا»..

❁ ❁ ❁

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]..

❁ ❁ ❁

﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم:٣٩]..

حين جاء محمد، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته، يتعثّرون في وجود زائف، ويُمارسون حياة مزوَّرة..

وما داموا، لا يعيشون في وجودهم الحقيقي، فالضمير الإنساني، إذن يعاني محنة ويترنح إعياء..

ولقد كان ذلك حاله..

كان مستعبَدًا لأساطير الأولين، ومنحنيًا دائمًا في مذلة وغفلة، أمام حجارة مرصوصة، تسمى الآلهة..!!

وكان مجرد وجود صوت يقول: لا - بمثابة إطلاق – أكيد – لسراح هذا الضمير، ودعوة له ليمارس وجوده، وحريته..

ولقد جاء الذي سيقول: لا..

وهو: محمد رسول الله، عليه الصلاة والسلام..

وسيكون التاريخ هناك، ينتظر سماعها منه؛ ليبدأ من فوره شوطًا طويلاً، ممعنًا، جليلاً، يطوف خلاله بمعظم الأرض، حاملاً دعوة محمد.. معلنًا نهاية الوثنية.. ساحقًا بقدمه، أو طاويًا بيمينه، أصنام العرب، ونار الفرس، وعباده قيصر، وهاتفًا بسيادة الإنسان على الأرض..

فليس فيها بعد اليوم أكذوبة يعبدها، أو قوة يسجد لها.

الذين يعبدون «قيصر» لن يعبدوه بعد اليوم..

والذين يسجدون للنار، لن يسجدوا لها بعد اليوم.

والذين يطوفون حول الأصنام، لن يطوفوا بعد اليوم..

وستتَقَطَّع جميع الخيوط غير المنظورة، التي تربط هؤلاء، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة، وآلهتهم الزائفة.

وسيقف الإنسان فوق الأرض سيدًا لا عبدًا.. تدفعه إلى غايته حركة جديدة نابعة منه، لا من أصنام، ولا من أزلام، ولا من قيصر، ولا من كاهن..

وشطر السموات العلى.. سَيُيَمِّمُ وجهه، حيث إله آخر.. إله واحد.. إله حق..

لا ينام.. ولا يمرض.. ولا يموت.. ولا يحقد..

إله ليس قيصرًا.. ولا حجرًا..

«سئل الرسول، ﷺ، عنه ذات يوم:

كيف رأيت ربك..؟

فأجاب:

«نور، أَنَّى أراه»..

أجل.. هو نور السموات والأرض.. هو قوة عالية، عادلة، تملأ الكون، وتنبثُّ في الكائنات جميعًا، انبثاثًا عظيمًا مسيطرًا..

وإنا لنكاد نراه في أنفسنا.. في الشمس.. في مياه النهر.. في النبات الأخضر.. في اليَبس والجمد.. في الحركة والسكون.. في السماء.. وفي الأرض..

يسأل الرسول جارية: «أين الله»..؟

فتجيبه: في السماء..

فيرضى عن جوابها، ويقول: «إنها مؤمنة»..

ولكنه في موطن آخر يقول:

«إذا كان أحدكم يصلي، فلا يبزق أمامه؛ فإن الله تجاهه»..

ويقول مرة ثالثة:

«لو ألقى أحدكم دلوه في بئر، لوقع على الله»..

حتى ليكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة.. أو هو رُوح الحياة، فهو أمامك، وعن يمينك..

هو في الشمس الطالعة، وفي الماء الجاري.. وفي الأفق المشرق..

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]..

ألم يكن محمد ببُشراه هذه.. بفهمه هذا لله.. يطلق الضمير الإنساني من قيود يرسُف فيها أمام قيصر يعبده.. أو صنم يذِلُّ له.. أو نار يسبِّح بحمدها..

ألم يخرجه من دائرته المغلقة.. ويقذف به إلى الجهات الأربع.. يحلِّق في رحلة صاعدة...؟؟

عندما يأخذنا من أمام الأصنام، ومن بين أيدي القياصرة المعبودين، ويقول لنا:

إذا كنتم تريدون الله، فانطلقوا صوب الحياة..

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]..!!

❁ ❁ ❁

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧].!

ماذا نفهم من هذه الآيات..؟؟

أما أنا، فأفهم أنها تؤدي دورًا جليلاً، غاية الجلال في تحرير الضمير الإنساني من سخرية الألوهية الزائفة التي كانت تُذِلُّه وتُضِلُّه، وتفسد عليه رُؤاه..

ولنعُد إلى الحديث الذي بدأنا به حديثنا هذا..

رأينا، كيف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام، أنه لم يجئ ليشق صدور الناس، ويتجسس على سرائرهم، ونواياهم..

إنه إذن يصون حرية الضمير، ويعلن حقوقه.. ويصون حرية التفكير، لأن التفكير عمل من أعمال السَّريرة.. فنحن نفكر في أنفسنا، ومع أنفسنا.. ولا يطَّلع على تفكيرنا أحد، إلا حين نعبر نحن عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير...

وحين نحمل ضمائر حرَّة.. أي نحيا في وجود حقيقي غير زائف ولا مبتَسر.. فإن تفكيرنا بالتالي، يكون حرًا.. ويكون سديدًا.. ويكون منشئًا وعظيمًا.

ماذا يفسد الضمير، ويفقده حريته وسيادته..؟

إنهما: الترغيب الباطل، والترهيب الجائر..

أي: المساومة، والخوف..

نفس المشكلة التي واجهت المسيح من قبل وهو يعالج مأساة الضمير ولسوف يُجهزُ عليها «محمد» في إبداع، وفي إعجاز..

(أ) ليس بين الله، والناس، وسطاء..

(ب) لأنه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد..

(جـ) لأنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا تمايز أبدًا بين الناس.

(د) والامتياز الوحيد، إنما هو للعمل الأصدق، والأصح، والأنفع.

(هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق، صالح، نافع.. فيد الله فوق يدك، من غير أن تطلبها..

(و) وإذا لم تكن.. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور.. لأن «جوازات

المرور» كلها لدى واحد لا يتكرر، ولا يحابي، ولا ينقض سننه وقوانينه.. هو: الله..

وإذن، فليذهب السماسرة جميعًا إلى الجحيم إن شاءوا...!!!

لقد انفضَّ سامرُهم وأمْحَلَت إلى الأبد، السوق التي طالما سرقوا فيها القلوب والجيوب..

إن محمدًا يتكلم.

إنه يذيع نعي السماسرة والوسطاء.. فاسمعوا رنينَه العذب، وقوله الصادق:

«إذا سألت، فاسأل الله..

«وإذا استعنتَ، فاستَعن بالله..

«واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك.. لم ينفعوك إلا بشيء، كتبه الله لك..

«ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك.. لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك..

«واعلم أن النصر، مع الصبر»..!!

✿ ◉ ✿

«اعلموا...!

«فكلٌّ مُيسّر لما خُلِقَ له»..

ثم يُركز المسئولية في يد الضمير:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١]..

✿ ◉ ✿

ولقد جاء الذي سيقول: لا..

وهو: محمد رسول الله، عليه الصلاة والسلام..

وسيكون التاريخ هناك، ينتظر سماعها منه؛ ليبدأ من فوره شوطًا طويلاً، ممعنًا، جليلاً، يطوف خلاله بمعظم الأرض، حاملاً دعوة محمد.. معلنًا نهاية الوثنية.. ساحقًا بقدمه، أو طاويًا بيمينه، أصنام العرب، ونار الفرس، وعباده قيصر، وهاتفًا بسيادة الإنسان على الأرض..

فليس فيها بعد اليوم أكذوبة يعبدها، أو قوة يسجد لها.

الذين يعبدون «قيصر» لن يعبدوه بعد اليوم..

والذين يسجدون للنار، لن يسجدوا لها بعد اليوم.

والذين يطوفون حول الأصنام، لن يطوفوا بعد اليوم..

وستتقَطَّع جميع الخيوط غير المنظورة، التي تربط هؤلاء، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة، وآلهتهم الزائفة.

وسيقف الإنسان فوق الأرض سيدًا لا عبدًا.. تدفعه إلى غايته حركة جديدة نابعة منه، لا من أصنام، ولا من أزلام، ولا من قيصر، ولا من كاهن..

وشطر السموات العلى.. سَيُيَمِّمُ وجهه، حيث إله آخر.. إله واحد.. إله حق..

لا ينام.. ولا يمرض.. ولا يموت.. ولا يحقد..

إله ليس قيصر.. ولا حجرًا..

«سئل الرسول، ﷺ، عنه ذات يوم:

كيف رأيت ربك..؟

فأجاب:

فهو إذ يُعطَى وثيقة حريته.. يعطَى معها وفي نفس الوقت، زمام مسئولية..!!

إن «المسئولية الشخصية» تتسع هنا، لتشكل وجودًا جديدًا، يمارس فيه الضمير البشري حريته ممارسة ناشطة، ممتلئة، فعالة.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤]

***

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:٦]..

***

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ:٢٥]

***

﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ:٤٢]!!

***

والآن، فمع محمد، مرّة أخرى، بل مرات، بل دومًا.. لنبصره في جلاله، وهو يحرر الإنسان، ويحرر الحياة.

لقد رأيناه وهو يجهز على المساومة وعلى الوساطة، التي تجعل الضمير الإنساني تابعًا، وسلعة.

والآن نراه وهو يحرّره من الخوف.

إن شر ألوان الخوف، هو الخوف من أنفسنا.

إنك قد تخاف «شبحًا». ولكن خوفك سينتهي باكتشاف حقيقته، وقد تخاف «ظالمًا» ولكن خوفك سينتهي بانتهاء ظلمه.

وقد تخاف فقرًا. أو مرضًا، أو كربًا، ولكن خوفك سينتهي بمجاوزة

الفقر إلى الغنى، والمرض إلى العافية، والكرب إلى الفرج.

أما حين تخاف نفسك.. فإنك تصاب بشرّ ما يمزقك..؟

لماذا..؟؟

لأن نفسك لا تفارقك أبدًا، ولو غادرت الأرض كلها إلى السماء، وإذن فستظل مخاوفك معك، تحيط بك، وتُملي لك، وتفقدك سكينة نفسك، وتُتَبِّر وجودك تتبيرًا..!

وخوف النفس، ينميه الفهم المغلوط لطبيعتها، والمبالغة في تجسيم أخطائها..

عندئذ يلفح الضمير نوع رديء قاس من الشعور الحاد بالإثم، يشطر الذات الواحدة شطرين، ويقسمها إلى معسكرين..

ويشعل في الشخص الواحد المنقسم على ذاته «حربًا أهلية» مضنية..!

وفي هذا، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير.

إنه لا يتغاضى عن الذنوب، إذا كانت جرائم «طَبَقة» أو جرائم «سُلطة»..

ونعني بجرائم «الطبقة»: تلك التي تشكل مقاومةً لمصالح الجماعة، وحقوقها، وتقدمها..

ونعني بجرائم «السلطة»: تلك التي تُستغل فيها الوظيفة، أو المركز، في انتهاب مال، أو إهدار حق..

أما تلك التي يفرزها الضعف الإنساني، في نطاق فردي: فهو بها جدُّ رحيم..!

وكما قال المسيح من قبل: «من كان بلا خطيئة، فليرمها بحجر»...

ويقول محمد: «كل بني آدم خطَّاء».

وإنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية في مكانها الطبيعي، بوصفها «إفرازًا» يكاد يكون حتميًّا، لوجودنا، ولطبيعتنا.. فيقول:

«والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بآخرين يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم».

إن الرسول، لا يحرّض بهذا على الخطأ، والرذيلة..

وإنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا.. ذلكم، هو «قانون التجربة، والخطأ».

إن الذنب هنا يعني: الخطأ..

والاستغفار، يعني: التجربة..

لأنه – أعني: الاستغفار – يمثل الموقف الذي نحاول فيه استرداد أنفسنا، وفطامها عن الخطأ الذي كانت تقارفه..

وهذه، تجربة..

ذلك أن التجربة، ليست هي الحادثة التي تحدث لنا..

بل هي، موقفنا من الحادثة نفسها..

ويبثُّ الرسول في الضمير مزيدًا من الطمأنينة، فيضرب هذا المثل: ذات يوم، وهو يسير مع أصحابه، يبصر على الطريق أُمًّا تضم طفلها في شغف كبير، وفي حنان أكيد.. فيقف متأملاً، ثم يسأل أصحابه:

– «أترون هذه الأم، طارحة ولدها في النار»؟

ويجيب أصحابه رضي الله عنهم:

«أبدًا، يا رسول الله»..!!

فيعقب الرسول، قائلاً:

«والذي نفس محمد بيده..

«لله أرحم بعبده المؤمن، من هذه بولدها»!!

ويتلو محمد آيات ربه في هذا المقام.

وإذا كان الشعور الحادّ بالذنب يعزلنا عن أنفسنا، ويسبب خوفًا منها، ويضعف ثقتنا بها...

وإذا كان الرسول، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور، حين ضَاءل من خطورة ذنوبنا وأخطائنا..

فإنه أيضًا، في نفس اللحظة.. ولنفس السبب، قد كَرَّه إلينا الخطايا، وحذّرنا من ارتكابها..

فليس من المعقول أن يُعنى بتطهير المصَبِّ ويغفل أمر المَنَابع.

وإذن، فهو حين يدعونا إلى الفضائل، وحين ينهانا عن الرذائل، بل وحين يُلح أحيانًا في دعوته هذه، فإنه لا يعني التحكم في الضمير، إنما يريد أن يبتعد به عن دواعي الخوف وأسبابه.

ويريد له أن يحتفظ دومًا بأمنه وسلامه.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج: ٥٠].

❁❁❁

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]..

بل إنه لَيذهب في إفساح آماد الأمل والرحمة مذهبًا بعيدًا، بارًّا..

فيدعو صاحبه «أبا هريرة» ذات يوم، ويقول له: «يا أبا هريرة، اذهب، وبشّر كل من يلقاك بالجنة»..

ويبتهج «أبو هريرة» لهذه المهمة الطيبة التي ستنزله في قلوب الناس منزلاً

مباركًا؛ إذ يبشرهم بأعظم بشرى ينتظرونها..

ويمضي مهرولاً.. يبشر كل من يلقاه بالجنة.

ويَلْمح.. «عمرَ بن الخطاب» قادمًا، فيجري نحوه سعيدًا بالجميل الذي سيسديه إليه، فيربح به قلبه..!

ويلقاه، ويعانقه، ويصيح:

يا عمر.. أبشر بالجنة..!!

- الجنة..؟؟ ومن أنبأك هذا..؟؟!

أنبأني رسول الله يا عمر.. قال لي: «اذهب وبشّر كل من يلقاك بالجنة»...

ويظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء.. فيأخذ بتلابيبه في صرامة، ويقوده أمامه إلى رسول الله؛ ليستجلي الخبر..

وبين يدي الرسول، يتأكد عمر من صِدْق صاحبه.. ولكنه يشير على الرسول ألا يفعل.. حتى لا يتكل الناس على عفو الله؛ فيتركوا العمل، ويتقاعسوا عن الخير..

❁❁❁

بعد هذا، يجيء دور الآفة الثانية من آفات الضمير،

وهي حرمانه حقه في المناقشة، والمعارضة، ووَضْعه تحت وصاية غبية من التقاليد البالية، ومن سدنتها، وحُماتها.

وللرسول مع هذه، جولةٌ موفقة..

ومجرد ظهوره، كرسول، كان «نعيًا» لها، وقضاءً أكيدًا عليها.. فلقد كان عمله، المناقشة، والمعارضة.. وتسريح أولئك الذين يزعمون لأنفسهم من دون الناس، حق التوجيه والوصاية.

إنه يحدث الناس عن ربه:

﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]..

ويطوِّف بهم بين آيات الكون وعجائبه، ثم يقول:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢]..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤]..

ويسلك مع الناس سلوكًا، من شأنه أن يعزي الضمير الإنساني بالمناقشة، وبالمعارضة.

يقول له «أعرابي»: يا محمد، أعطني؛ فليس المال مالك، ولا مال أبيك..!!

ويهرع إليه عمر غاضبًا، يريد أن يطرحه أرضًا، أو يجهز عليه.. فيرده الرسول في ابتسامة عذبة، ويقول:

«دعه يا عمر..

«إن لصاحب الحق مقالاً»..!!

وهو – عليه السلام – يلوم السلبيين الذين لا يواجهون الخطأ بالتقويم، وينهى الناس عن أن يكونوا كذلك:

«لا يكوننَّ أحدكم إمَّعة..

«يقول: إذا أحسن الناس، أحسنت..

وإن أساءوا، أسأت»..

«ولكن، ليوطِّن أحدكم نفسه، إذا أحسن الناس، أن يُحسن..

وإذا أساءوا، أن يتجنَّب إساءتهم»..!!

وإنه ليدمدم على التقاليد التي انتهى دورها، ثم لا تزال تتلكأ، وتتشبث بالبقاء.. وعزلها عن الضمير الإنساني ليباشر دوره مع الحركة الجديدة للتاريخ.

ويسخر من الذين يقولون كلما دُعوا إلى التقدم: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

ويرثي لمصير الذين لن ينالوا صداقته يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ لأنهم «كانوا يرجعون بعده القهقرى»!!

ويقول مُبارِكًا نهج الحياة في التغير والتطور، وهاتفًا بنا؛ كي نسارع دومًا إلى نداء التجديد القويم الصالح:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها»..

ولقد دمَّر الوصاية على الضمير الإنساني، حين أعطاه حُريته، وحمَّله مسؤلياته على النحو الذي رأيناه من قبل.. كما اعترف بحقه في الخلْق، والابتكار، والتصرف، حين قال للناس: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»..!

❁ ❁ ❁

أما موقفه من ثالثة الأثافي التي كان الضمير يترنح منها، وهي: العنصرية.. فما أروعه وهو ينقض بناءها حجرًا، من بعد حجر..!!

لقد عرف – جيدًا – المنزلة التي بوّأه الله إياها.. ووضعه فيها.. إنه نذير يخرج في قومه، وبشير.

وقومه – وهنا تأخذ كلمة «القومية» أصدق مفاهيمها، وأحقها بالإكبار والإجلال –..

قومه، هم العالم.. دون أن ينقص ذلك من ولائك لوطنك وعشيرتك.

أجل، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة والموعظة الحسنة..

العالم كله.. حاضره، وغائبه.. قريبه، وبعيده.. صالحه، وزائغه!

«إني رسول الله إلى الناس كافة».

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]..

وحين يُسأل عن أفضل الأعمال، يجيب وما أبهره من جواب!

«أفضل الأعمال: بذل السلام للعالم».!

بذل السلام للعالم..؟؟؟

لكأنه يقولها اليوم.. ولكأنها تخرج الآن من بين شفتيه الودودتين غضَّة، رطبة، حانيةً، دافئةً، هاديةً، جليلةً...!!!

أنى يكون للعنصرية – إذن – في دعوته مكان..؟؟

إن العنصرية، أنانية جشعة مظلمة، ولقد عاش الضمير الإنساني في حمأتها حتى كاد يفقد ذاته.. وكل تحرير له منها، يمثل تحريرًا باهرًا للإنسانية كلها، إلى الأبد.

من أجل هذا، أمره ربه أن يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحُجُرات:١٣]

أي لتكون غايتكم، التعارف، والتآخي..!

وفي التطبيق العملي لهذا الدعوة الجليلة، يمضي محمد كالضوء:

فـ «سلمان» الفارسي.. يأخذ مكانه إلى جوار «أبي بكر» و«عمر» القرشيَّين..!

و«بلال» الحبشي، يكون مكانه في السلم الاجتماعي، ذروته وأعلاه.

بينما «أبو جهل» – الزعيم القرشي – يهوي في تقدير الرسالة إلى حضيض ليس له قرار..!

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا «العالم» وسلامه.. هو الميزان الذي يحدد أقدار الناس.

وبلال الحبشي.. كان من العاملين الصادقين.. **لأن الدعوة** التي سار تحت لوائها، كانت تقدمًا بالحياة، وبالزمن، وبالناس إلى الأمام..

كانت تأخذهم من معاطن الركود، والبلى، والجهل، إلى حياة جديدة حافلة بالحركة، وبالتطلع..

أما «أبو جهل»؛ فكان من أقطاب الرجعية، والوقوف.. لهذا أخذ مكانه في أدنى السلم حتى دفعه الزحام أخيرًا إلى التراب..!

أليست رائعة، وعظيمة.. وقفة هذا الإنسان الكبير، في قرية متواضعة هي «المدينة».. منذ ألف وأربعمائة عام.. يمزق رايه العنصرية.. ويسوق القافلة إلى إخاء رحيب، ويتحدث عن «بذل السلام للعالم»..؟؟!!

أجل، إنها لكذلك.. سيما حين نرى في زماننا هذا، ذي المدنية الباذخة، والحضارة الشامخة، دُوَلاً، وشعوبًا تنادي بالعنصرية، وتقيم لها الصرح..!

إن حاجتنا لأكيدة، ومستمرة. لتلاوة الإعلان الذي أذاع به «محمد والمسيح»، حقوق الضمير الإنساني، وخلصاه به من أصفاده التي كان يعانيها، ويقاسيها.

ولم يكن ثمة أي اعتبار لدى محمد، للفوارق التي تستطيع إذا أهمل حطامها، أن تخلق طبقة باغية، أو عنصرية مستعلية..

لا اللون، ولا الجنس، ولا الثروة، بل ولا الدين..

لا شيء من هذه جميعًا يأذَن له الرسول بأن يفرِّق بين الإنسان، والإنسان..

ومن جهة اللون، والجنس، والثروة، يقول فيما يقول..

«كلكم سواسية كأسنان المشط»..

ومن جهة الدين، يقول عن ربه..

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]..

ويقول:

«الأنبياء إخوة، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»..

وهو - كرسول للإسلام - يعامل أهل الكتاب معاملة الأخ والندّ.. ما لم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر طارئ، لا يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات..

لم تكن لدعوة «محمد» عليه الصلاة والسلام حدود إقليمية.. ولم تأخذ أبدًا طابع التعصب، ولا العنصرية..

انظروا...

حين قدم المدينة، وجد اليهود يصومون يوم «عاشوراء»..

فسألهم: «لماذا تصومونه»..؟؟

فأجابوه: إنه يوم عظيم.. أنجى الله فيه موسى ومن معه.. فصامه شكرًا لله.. ونحن لهذا نصومه.

فقال الرسول ﷺ:

«نحن أحق وأولى بموسى منكم»..

وصام «عاشوراء».. وأمر المسلمين بصيامه..!!

هذا رسول «إنسانيّ» الرؤى.. «عالميّ» النهج.

ومن ثمَّ، لم يكن للعنصرية في حياته، ولا في دعوته مكان.

***

هكذا حرَّر «محمد»، كما حرَّر «المسيح» الضمير البشري من الأخطبوط

الذي كان يحتبسهُ، ويمحقه، والذي أفضنا في الحديث عنه، وفي الحديث عن الإجراءات التي اتخذها ضدَّه، الرسولان الكريمان..!!

ونود أن نذكِّر بما قلناه من قبل.

أن الضمير الإنساني، كما نعنيه هنا..

هو «الإنسان في وجوده الحقيقي».

وأوَّل مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان: هو.. الفكر.

وكل دفاع عن حرية الضمير، وحقوقه.. هو دفاع عن حرية الفكر، وحقوقه.

ومن شاء.. فليعد تلاوة النصوص التي سلفت كلها.. فسيبصر أنها مباشِرَة في حماية الفكر، مثلما هي مُبَاشرة في حماية الضمير.

إن «التفكير» عملية ذهنية.. نُزَاولها جميعًا بأسلوب تلقائي حتمي.. لا نتكلفه. ولسنا على دَفْعه بقادرين.

كل فرد يفكر في شئونه، ومشاكله، وشواغله، ورُؤى نفسه.

وكل فرد يعبّر عن ذات نفسه بالطريقة التي يستطيعها.

ويتعرقل تفكيرنا.. وينافق تعبيرنا، حين تُصيبنا بعض الضغوط الكابحة.

هذه الضغوط التي ترتكب بتقحمها حِمَى الفكر - جريمةَ.. «إرهاب الضمير».

وإرهاب الضمير، أشَدُّ قساوة، وأكبر إفكًا، وأبأس مصيرًا من إرهاب الجسد.

ذلك أن «إرهاب الجسد» قد يَكبْتُ التصرُّفات والسلوك والقول..

ولكن الفكر يبقى بعد هذا يعمل، ويجمع الوقود ثم يزجيه ليوم الفصل.

وليس على ظهر الأرض قوة، تستطيع أن تمنعك عن التفكير فيما تشاء..

ذلك أن التفكير عملية مخبوءة، غير منظورة، وغير مسموعة.

إنك – في صمت – تفكر فيما تشاء.. ولا يعلم أحد عن موضوع تفكيرك وخاطرات نفسك شيئًا، إلا حين تفتح شفتيك، وتحرّك لسانك..

ومهما تكن الظروف التي تمسك لسانك عن كلام تريد أن تقوله.. أو تمسك سلوكك عن عمل تريد أن تمارسه، ففي يوم ما، ستتوفر لك لا محالة، ظروف أخرى تمكّنك من القول ومن العمل في حرية واختيار.

لكن إرهاب الضمير شيء مختلف جدًّا.. فهو يسلّط على «بؤرة» الحياة فيفسدها إفسادًا لا يكاد يصلحها بعد ذلك شيء.

أو هو، يلوي زمام الضمير عن السبل الصحيحة، إلى طرائق، كلُّها حفر وعثرات..!!

إنك – مثلاً – حين تؤمن بحق البشر في سلام دائم، ويمارس ضميرك دومًا تفكيرًا دائبًا في هذا الحق.. ثم تقوم ظروف قاهرة، أو قوة راهبة، تحول بينك، وبين الإعلان عن صوت ضميرك، وإذاعة ما تفكر فيه..

فإن ذلك لا يضير.. إلا ريثما تتوارى تلك الظروف، فتجد فرصتك في التعبير عن ضميرك، وعقلك، وفكرتك التي أنضجَتْها المثابرة، والأناة، والصبر المفروض..!!

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتنفذ بالإرهاب السادر، أو بالخداع الماكر إلى ضميرك نفسه.. إلى عقلك، وتفكيرك، فتفسده حتى ترى السلام خرافة.. والحروب ضرورة.. فتلك هي الكارثة التي لا تكاد تؤذن بعلاج..!!

لماذا..؟؟

لأن الضربة هنا، وجهت إلى «بؤرة» الحياة نفسها.. إلى «مركز التنفس» ذاته.. إلى الجهاز العظيم الذي يصنع لنا في الحياة كل جليل من الأمور، وكل

عظيم من الأعمال..

ذلكم هو العقل.. والضمير.

ومثل آخر:

قد تكون إنسانًا متدينًا، وتعتقد – خطأ – أن تعليم البنت حرام.. عندئذ، ستكون مستعدًا حسب درجة تدينك إلى ارتكاب أية جريمة، تمنع هذا الذي تظنه منكرًا، وهو تعليم الفتاة..

وساعتئذ، لن تسمى جريمتك هذه، جريمةً، ولكن ستدعوها جهادًا.. وبطولة.. وإذا انتهت بموتك، فسترى الموت، تضحية، واستشهادًا!!

وقد تكون من الذكاء والمقدرة، بحيث تستطيع أن تجمع حولك «قطيعًا» هائلاً من المؤمنين بك، وبقولك..

وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة، تكافحون بها «تعليم البنت» – مثلاً –..!

وسيكون السبب الكامن وراء هذا كله «انحراف الضمير»..!!

ومن أين يجيء هذا الانحراف..؟؟

- يجيء من إرهاب الضمير..
- ومن تضليله، وحبس المعرفة عنه..

ويتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الديني.. والتخويف السياسي.. والتخويف الاجتماعي..

وإن ضحايا الحروب الدينية.. والثورات السياسية والاجتماعية – لَتشيرُ إلى إرهاب الضمير، كنقطة بدء لكل ما أصاب، وما يصيب البشرية من عناء..

ولو أن الناس يُتركون، ليفكروا في حرية، وليبلغوا حقوقهم في حرية،

لَتوفَّرَ كثير من الدم المراق..

ومن أجل هذا...

ومن أجل أن يحيا الناس في وجود حقيقي صادق طيب.. هتف محمد وهتف المسيح بالكثير من حقوق الفكر، والضمير.

ولقد حدثتكم في بعض مؤلفاتي السابقة، عن المدى البعيد، والرشيد الذي ذهب إليه محمد، في احترامه حقوق العقل، حتى فتح ذراعيه لحرية الشك ذاتها..

وذلك، حين ذهب إليه بعض أصحابه، يَشْكون إليه أنفسهم، ويبثونه مخاوفهم القاتلة من شكوك في الله، تُسَاوِرُهُم..

فإذا هو يجيبهم متهللاً:

«هل وجدتموه...؟؟ - يعني الشكَ -».

فيقولون في أسى: نعم..!!

فيجيبهم في بِشْر:

«الحمد لله.. هذا مَحض الإيمان»...!!!

من كان يعرف مثالاً، لاحترام الضمير الإنساني، أروع من هذا المثال، فليدلنا عليه..!!

هذا رسول.. صاحب دعوة.. وصاحب دين..

لُباب دينه: الإيمان بالله..

ثم يعتبر الشك سبيلاً لليقين، ووسيلة للإيمان، بدلاً من أن يعتبره جريمة ووزْرًا..؟؟

إنه لأمر فريد، وعجيب..!!

✿❁✿

والآن.. يجيء دور سؤال هام، علينا أن نعرضه.. وعلينا أن نواجهه في شجاعة، وفي بصيرة..

وهذا هو السؤال:

ألم يكن السلوكُ الذي حدده المسيح ومحمد للناس، وطلبا إليهم ألا يُجاوزوه –وصايةً على الضمير..؟؟

ألم يكن التخوف الشديد الذي بَثَّاه خلال وعيدهما للعصاة.. إرهابًا للضمير..؟؟

سؤال يجيء في أوانه، وفي مكانه، بعد حديثنا المسهب عن رعاية الرسولين لحقوق الضمير الإنساني، وحمايتهما لمصيره.

وأجيب: لا.. لم يكن من ذلك شيء.. إذا أحسنَّا فَهم محمد وفَهم المسيح..

لقد ظهر المسيح في قوم، كانوا يخضعون – كارهين – لوطأة «روما» وكبريائها.. ويخضعون – مخدوعين – لتعاليم الكهنة وخرافاتهم..

ناس، كان الضمير فيهم ملفوفًا داخل قطعة من العلم الروماني.. المرشوش بالماء المقدس.. أو الذي كان الكهنة يسمونه مقدسًا..!!

وكانت السلطة الزمنية، والسلطة الدينية «متفاهمتين» تمامًا على موقفهما من الضمير، «متفقتين» على ضرورة اضطهاده، والتنكيل به.

السلطة الزمنية، تضطهده بوسائلها المعروفة.. السجن.. والصلب والتعذيب..!!

والسلطة الدينية، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك.. الطرد من الهيكل.. الحرمان من البركة.. الوعيد بالنار..!!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالتين؟

أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير بطريقة ذكية، فقال حكمته المأثورة:

«ما لقيصر، لقيصر.. وما لله، لله»...

واتجه صوب السلطة الدينية، التي كانت في معظم تصرفاتها «دثارًا» يغطي جرائم روما وسلاحًا يفتك به حكامها.. فقال لرؤساء الكهنة:

«يا أولاد الأفاعي.. يا مراءون.. أنتم كَذّابون، ومهرّجون.. تتحدثون بالصالحات وأنتم فَجَرة»..!!

وعمد إلى أساطيرهم، فتحداها وسخر منها..

واستقبل الضمير الإنساني، القابع في أفئدة ناس يرتجفون من الخوف، فقال لهؤلاء: لا تخافوا.. إن أباكم السماوي قادر على حمايتكم.. وهو فيما يتعلق بحقوقه، غفور ورحيم..

وبمثل هذا.. قام محمد..

قال للأشراف الذين كانوا يستضعفون الناس، وَيَسْتَرِقُّونَهُمْ:

«ليس لابن البيضاء، على ابن السوداء فضل.. فارفعوا العبيد إلى جواركم»..

فلما وضعوا أصابعهم في آذانهم، قاد العبيدَ بنفسه، ليأخذوا مكانهم المشروع، بجوار السادة..

ولما رفع السَّادة سيوفهم.. صاح بالعبيد، أن يدحرجوا السادة الغاصبين إلى السفح البعيد.. ويأخذوا مكانهم الذي هم به جديرون!

واتجه صوب «الأسر الديني» المتمثل في الأصنام.. فألقاها على الأرض أنقاضًا وترابًا، وقال، وهو ينكت مصيرها:

﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]..!!

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد، إلا لحساب الضمير، ولحساب التقدم الإنساني أيضًا..

وقد يصعب على بعض الناس، تصور هذا اليوم، لأنهم بعيدون – جدًّا – عن الزمان، وعن المكان، وعن الظروف التي تمت خلالها، تلك الخطوات الجليلة، الجريئة، الفاتحة..

وهنا نسأل:

أكان يصح، والرسولان الكريمان، يهدمان تعاليم جامدة، ألا يقيما مكانها نهجًا للحياة جديدًا..؟؟

بَدَاهةً، لا.. ولا بد إذن من منهاج.. ولقد دعا كل منهما إلى منهاجه.

وهذا المنهاج، ثابت وباق فيما يتعلق بقيم الحياة المثلى.. من خير، وحق، وجمال، وتضحية. ومعرفة..

ولكنه مَرِن، ومتحرك، وقابل للتطوير، فيما يتعلق بسلوك الجماعة، واحتياجاتها..

والآن، نسأل سؤالاً آخر:

ماذا كانت طبيعة دعوتهما..؟؟

أكانت وصاية على الضمير..؟؟

أكانت، وهي تدعو الناس إلى فضائل معينة تريد أن «تحَدِّد إقامة الضمير»..؟

أكانت، وهي تُخَوِّف الناس من عاقبة الخروج عن الصف، تريد أن ترهب الضمير..؟

إن تخويفًا أكيدًا، قد حدث..

ونستطيع أن نلتقي به في تلك الآيات الغضاب التي يضمها الإنجيل،

ويضمها القرآن..

- لكن التخويف الذي لا يتحوَّل إلى إرهاب، قد يكون نافعًا.. سيما في تلك الأزمان البعيدة.. ذلك أن الطبيعة الإنسانية، كما تنفعل بالرجاء، تنفعل بالخوف..

ونحن حتى اليوم، تعتمد قوانيننا، ويعتمد عرفنا الاجتماعي، على الزواجر، كوسيلة من وسائل التربية والتقويم، وكما قلنا: التخويف في حد ذاته، وبقدر حصيف ليس ضارًا..

فلا بد من مخافة المرض.. حتى نُعنى بالصحة..

ولا بد من مخافة الفوضى.. حتى نحترم النظام..

ولا بد من مخافة الحرب.. حتى نتشبث بالسلام.

إلى الآن – على الأقل – يلعب الخوف الطبيعي هذا الدور في تقدمنا..

ولكن حين نسرف في استعمال الخوف فيصير إرهابًا.. أو نسيء استعماله، فلا نقدم معه الأمل والرجاء، فإن الوضع آنئذ يختلف كثيرًا.

ويتحوَّل الخوف إلى جريمة ووبال.

والتخويف الذي لَوَّح به المسيح، وأخوه محمد – لم يكن مسيئًا؛ لأنه لم يكن وحده.. بل كان وَسط ذُخر عظيم من الرجاء، والأمل، والكشف الصادق عن رحمة الله الواسعة، وفضله السابغ..

كما أنه لم يكن إرهابًا..

فالمسيح، لم يحمل سيفه ليدخل عقائده في قلوب الناس عنوة..

ومحمد لم يحمل سيفه ليدخل عقائده في قلوب الناس عنوة..

إنما حمله، ليدافع عن نفسه وعن دينه ضدَّ المعتدين..

وليس أدلّ على هذا، من أنه حين ظفر وانتصر، لم يُكرِه واحدًا من الناس

على الدخول في دينه..

ولقد رفع – عاليًا – هذا المبدأ الجليل الذي أوحاه إليه..

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٦٥]...

- وإذا انتفى وجود الإرهاب.. انتفى وجود الوصاية، والحَجْر على الضمير..

لقد كان لكل من الرسولين، عقيدته ومنهاجه.. بثَّ الرسولان دعوتها في حرارة وقوة، ورسما للمؤمنين بهما مسلكًا وطريقًا.

ولكن ذلك كله، لا يعني الحجر على الضمير الإنساني، ولا ينبغي أن يعني ذلك في وعينا.

فكل إنسان حر، في أن يُقبل عليهما، أو يعرض عنهما.. وهما لا يسلكان الناس في الأغلال، ثم يسوقانهم إلى الإيمان، والإذعان..

كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير والمحاولة..

هذا هو المسيح يقُول:

«ابحثوا عن الحق»..

والقرآن يقول:

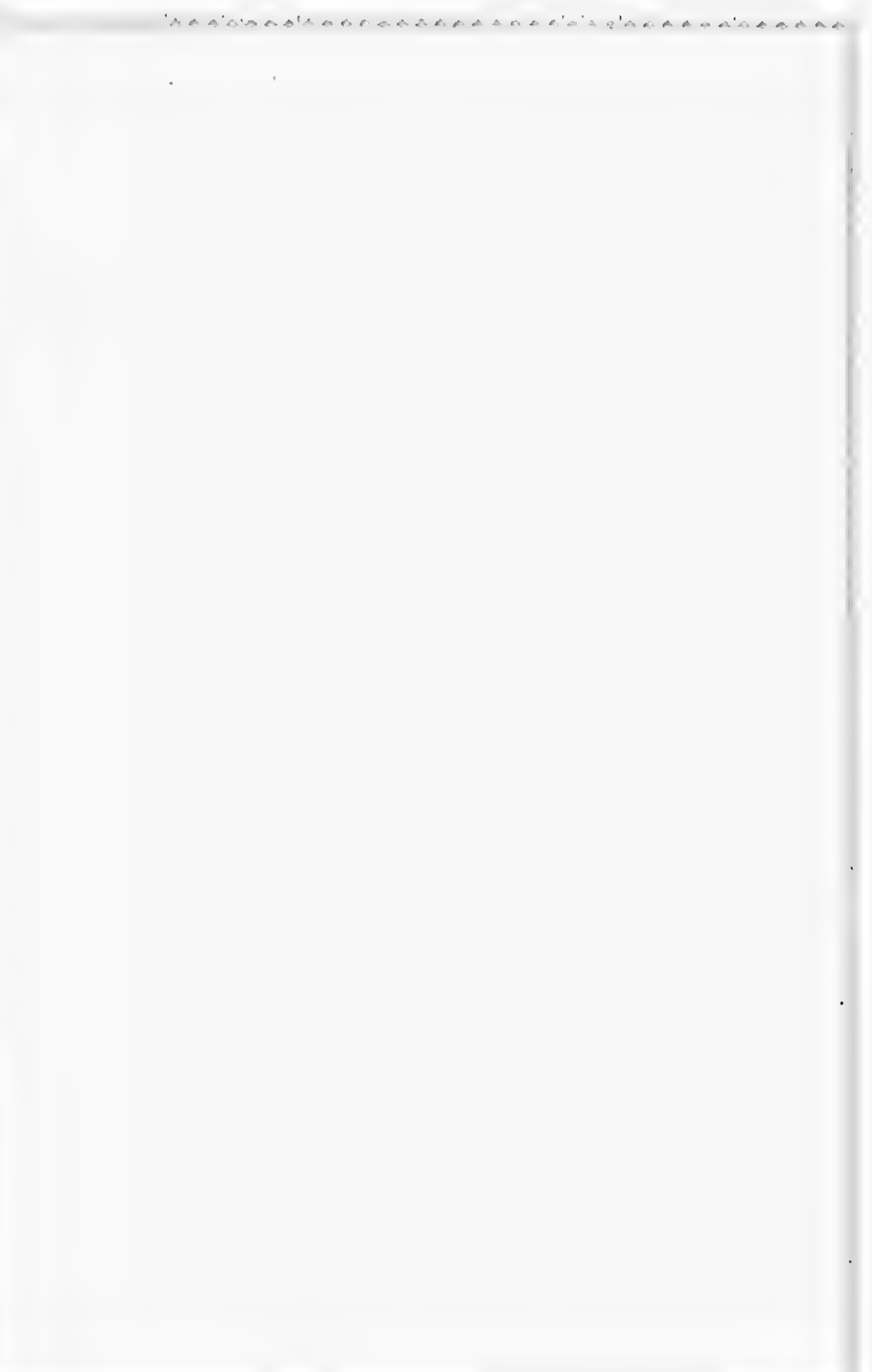
﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت:٢٠].

والرسول يقول:

«تفكُّر ساعة، خير من عبادة سنة»..

ولقد طالعنا من قبل موقفَه الجليل إزاء الذين غلبهم الشك في الله، أو كاد.. فما عنّفهم، ولا فتح لهم أبواب الجحيم، بل قال لهم، وعلى شفتيه بسمة الرضا واليقين:

«هذا صريح الإيمان»..!!



الفصل الخامس

معاً من أجل الحياة

«أنا خبز الحياة»..

كان المسيح يُهدي إلى الحياة من خير ما في نفسه، حين قال هذه الكلمات..

وإنها لتحمل من الطرافة، بقدر ما تحمل من الحكمة الغنية الحافلة...

وإنها لتثير تساؤلاً، وعجبًا..؟!

فماذا كان يعني المسيح بالخبز..؟؟

أكان يعني المذاق المادي لطيبات الحياة وهو الذي قال: «لا تطلبوا أنتم ما تأكلون، وما تشربون»..؟؟

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات «خبز الحياة»..؟

لماذا، وهو العابد الأوَّاب، لم يقل: أنا خبز الإيمان.. أو: أنا خبز التقوى.. أو: خبز الآخرة..؟؟

لماذا آثر «الحياة».. وقال: «أنا خبز الحياة»..؟؟

ألا إن الجواب ليسير..

فالحياة، هي «الموضوع» الذي جاء المسيح ليجلوه للناس، ويشرحه، ويلقي فيه درسه البليغ..

هي «الأم» التي جاء المسيح، كما جاء محمد، وكما جاء إخوة لهم من المرسلين، لينادوا إليها أبناءها الشاردين عنها.. وليُحيوا في أنفس الناس..

شعائر البرّ بها، والولاء لها..

وإذا كانت الحياة لا يظفر بها، ولا يحياها، إلا أولئك الذين يكون لهم وجود حقيقي، فقد جعل الرسولان العظيمان نصب أعينهما، اكتشاف هذا الوجود الحقيقي للإنسان..

ووجودنا الحقيقي، يبدأ من أين..؟؟

يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع كل ما حولنا..

ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات، أكثر ما عاش له، وعمل في سبيله، محمد، والمسيح..

لقد كشفا للإنسان أزكى علاقاته، بالله.. وبنفسه.. وبالعائلة البشرية كلها.. وبالكون وأسراره الحافلات..

- أما علاقتنا بالله، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة، ورهبة.. وجعلاها حبًّا خالصًا..

قال المسيح:

«الله محبة»..

وقال محمد:

«أفضل الأعمال: الحب في الله»..

- وأما علاقتنا بأنفسنا، فقد ركّزاها في العمل الدائب على صقلها، وتعليتها.

قال المسيح:

«ماذا ينفع الإنسان، لو ربح العالم كله، وخسر نفسه»..

وقال القرآن المنزل على محمد:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]..

- وأما علاقاتنا بالآخرين، فالتسامح المطلق، والتعاضد الوثيق.

قال المسيح:

«أحسِنوا إلى مبغضيكم، وَصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم»..

وقال محمد:

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»..

- وأما علاقتنا بالكون، وبأسرار الطبيعة، فهي التطلع الشغوف، والبحث وراء المجهول.

قال المسيح:

«اقرعوا، يُفتح لكم».

وقال القرآن الكريم:

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠].

عندما تتوافر لنا هذه العلاقات الرشيدة، تتولد من تفاعلها «حركة» دائبة، بانية، غايتها استثمار وجودنا.

واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة، وبما ينشئ من تَبعة، وبما يُعطي من نتيجة – هو الحياة..

لقد أحبّ المسيح الحياة، بقلب حميم، وعشقها بروح وَدود.

كان – كما وصف نفسه – خبز الحياة.. لأنه غذاها بتعاليمه، وسقى مثُلها العليا، وَقيمها الباقية من رُوحه.

ومن أراد أن يبصر حبّ المسيح للحياة، فليبصره في الإنسان.

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده..

وأحبّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه: الطفل..

إن «الإنسان الطفل» حبيبُ روحه، وصفيّ نفسه.. لأنه خير مثال للحياة الطالعة.. الصاعدة.. البريئة.. الصادقة..!!

إنه يحبّ الحياة، غضّة، مُترعرعة، ناضرة، لا تأثيم فيها، ولا مُخاتَلة.

ومن ثمَّ مجد انعكاسها هذا على خير موضوعاتها – الإنسان الطفل – الذي يمثل الحياة الكاملة حقًّا.. حين يُحاول.. وحين يتعثر.. وحين يشبّ وينمو..!

لنقرأ في الإنجيل هذا النبأ:

«.. في تلك الساعة، تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم في ملكوت السموات..؟

«فدعا يسوع إليه ولدًا وأقامه في وسطهم، وقال: الحق أقول لكم: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل هؤلاء الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات..

«فمن وضع نفسه مثل هذا الولد، فهو الأعظم في ملكوت السموات..

«ومن قَبِلَ ولدًا واحدًا مثل هذا، فقد قَبِلَني، ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى، ويغرق في لُجّة البحر»..!!

إن هذا الحَدَب العظيم على الطفولة الإنسانية، يمثل حَدَبًا أعظم على كل ما في الحياة من خير، وجمال، وصدق وسلام، وصعود..

وكل من يُعْثر واحدة من هذه القيم التي تزين الحياة وتنمّيها، فقد أعثر طفلاً من أطفال الله الذين يحبهم، ويحرسهم، ويرعاهم..

ولأنّ الحياة عنده، تعني الازدهار والاستمرار، كان كثيرًا ما يشبِّهها

بالحقل، ويشبّه نفسه بالزارع المثابر..

والحياة لَدَى المسيح، هي الحياة.. خيرها، وشرها.. حلوها، ومرها.. خطؤها، وتجربتها..

وهو يحبها جميعًا.. ويحنو عليها جميعًا.. حتى في شقائها، وفي أخطائها..

ضرب لنفسه ذات يوم مثلاً:

«إنسانًا زرع زرعًا في حقله.. وفيما الناس نيام، جاءه عدوه وزرع – زوانًا – في وسط الحنطة، ومضى..

«فلما طلع النبات وألقى ثماره، ظهر الزوان بجانب الحنطة، فجاءه خدمه، وقالوا له: يا سيد، أليس زرعًا جيدًا زرعت في حقلك، فمن أين له هذا الزوان..؟؟

«قال لهم: إنسان عدو، فعل هذا..

«قالوا له: أنذهب، فنجمعه؟

«قال لهم: لا؛ لئلا تقلعوا الحنطة مع – الزوان – وأنتم تجمعونه»...!!!

انظروا حنانه على الحياة، وأحيائها..

طالعوا برَّهُ بفضائلها، وبأخطائها..

إن الزرع الجيد، هم الناس الطيبون، والزرع الرديء، هم الناس الخطَّاؤن..

وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الرديء؛ رفقًا بالطيب، حتى لا يُجْتث معه، ويذهب بَدَدًا..

ولكن، أكان يعني إسلام مصير الطيب للخبيث..؟؟

كلا، فالمسيح لا يَدَع الرحمة تبطل العدل، ولا يتأتى لبرِّه العظيم أن يعتاق

سننَ الكون، ونظام الحياة.

ومن أجل هذا، أتمَّ المثل الذي ضربه، فقال:

«.. دعوهما ينموا.. كلاهما معًا إلى الحصاد..

«وفي وقت الحصاد، أقول للحاصدين:

أجمعوا أولاً – الزوان – وأحزموه حزمًا ليحرق.. وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني»..!!

ترى، لو أمكن تحويل هذا – الزوان – إلى زرع طيب، وحِنطة جيدة.. أيكون مصيره الحرق أيضًا..؟؟

بالبداهة، لا.. وهنا يُتم حرص المسيح على الإنسان وعلى الحياة دورته، فيبذل جهده ليحوِّل – الزوان – إلى زرع نضير، وقمح وفير..

يُحوِّل الشر إلى خير.. والإنسان الضالّ إلى إنسان أمين مستقيم.

«أنا ما جئت لأدْعُوَ أبرارًا للتوبة. بل خطائين».

❁❁❁

«ما جئت لأهلك أنفس الناس، بل لأُخَلِّص».

❁❁❁

ولقد أحبَّ «محمد» الحياة حبًّا عزيزًا نقيًّا، وكان لها صديقًا، أيَّ صديق..!!

أحبها في كل مظاهرها، ونَبضها..

فإذا هطل المطر، سارع إليه كاشفًا عن صدره؛ ليتلقَّى رذَاذَه النديّ الرطيب وليس بينهما حجاب..

وإذا بزغ الهلال، استقبله في إخبات وحفاوة، وناجاه قائلاً:

«ربي وربك الله»..

ويسير بين الحقول – وما كان أندرها في بلده – فإذا وقعت عيناه على براعم تتفتح، دنا منها، ومسّها بيد حانية، ثم انحنى عليها، ولثمها بفم شكور، وغمرها بفيض من مودته وصداقته، ثم همس إليها قائلاً:

«عام خير وبركة، إن شاء الله»..!!

وإذا طلعت الشمس استقبلها داعيًا مبتهلاً.. وحين تغرب، فلها منه تحية الوداع..

ولكأنما سارع الله إلى هواه، وشاء أن يزكي صداقته الحميمة للكون، والحياة، فأقسم في قرآنه الكريم بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢] وأقسم بـ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشمس:١-٣]..

لقد احترم الرسول ﷺ الحياة في كل حيّ.. في الإنسان.. والحيوان.. والطير..

في الأبيض.. والأسود.. والأصفر..

في عظمتها.. وفي بؤسها..

مرت به ذات يوم جنازة، فوقف لها في خشوع.. حتى إذا جاوزته قال له أصحابه: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي..

فأجابهم:

«سبحان الله..!! أليست نفسًا»..؟؟!!

ولم يُطِقْ أن يرى الحياة تتعذب في «هِرّة» فقال محذرًا:

«دخلت امرأةٌ النار في هِرّة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها»..

بل أراد أن يملأ الأفئدة بتقديس الحياة؛ حتى لا يبقى فيها مكان – أي مكان – لامتهانها.. وساق هذه القصة القصيرة، والمثيرة:

«بينما بَغِي تسير ذات يوم، إذ رأت كلبًا يلهث من العطش، فخلعت مُوقَها – أي نعلها – وأدلَتْه بحبل في بئر، وملأته ماء، وسقت الكلب؛ فشكر الله لها، وأدخلها الجنة»..!!

وَحُبّهُ للحياة، جعله يرفض أن يحياها مترفًا؛ لأن الترف يذهب ببهجة معاناتها..

«نحنُ قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا، لا نشبع»..

ورفض أن يحياها متجبّرًا؛ لأن التجبُّر افتيات على قداستها..

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف:١١٠]..

ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها..

﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤]..

✿ ◉ ✿

«اطلبوا العلم ولو في الصين»..

ولم يحدث قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديث استخفاف وتحذير إلا وهي مقرونة بكلمة «دنيا»..

﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [محمد:٣٦]..

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد:٢٠]..

﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون:٣٣]..

وقال عن الذين يعيشون كالأنعام، ولا دور لهم في الحياة:

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [المؤمنون:٣٧]..

فالحياة المقرونة بهذا الوصف..

الحياة «الدنيا»..

الحياة الصغيرة الضئيلة، التي لا تحليق لها، ولا تبرير فيها - هي التي يذكرها القرآن دومًا في مجال الاستخفاف..

أما الحياة العظيمة..

الحياة الصالحة، فالمسيح خُبْزها.. ومحمد صديقها..

***

قلت: إن علاقاتنا السديدة بالله.. وبأنفسنا.. والعالم... وبالكون جميعه.. تمكّننا من استثمار وجودنا..

وقلت: إن استثمار الوجود يعني أننا نمارس الحياة..

وأقول: إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقي بعلاقات أخرى تربطنا بالحياة، وتشدنا إليها..

وكلما كانت هذه العلاقات صافية، صادقة، جادة.. كانت الحياة بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة..

أما إذا اعتور هذه العلاقات الزيف، والانحراف، والكذب، فإن الحياة - حياتنا - تفقد جمالها، وقيمتها..

وقد نستطيع أن نتصور هذه العلاقات في:

- الحب...
- الصدق...
- العمل...

كل أشياء الحياة، بينها مودَّة وإلاف.. حتى الخير والشر اللذَيْن يبدوان لنا نقيضين لا يتفقان، وضِدَّين لا يجتمعان.. يسري بينهما «شِرْيَان» خفيّ من التجاذب والتعاون.. وكثيرًا ما تعمَى السُّبل على الخير، فيتقدم الشر ويفتح

أمامه الطريق..!

والأرض، وما حولها من كواكب، تألف الشمس، وتحبها، وتنجذب نحوها..

ونحن ننجذب إلى الأرض في حنان، واضطرار..

وهكذا، فالحب الذي نسميه «جاذبية» ليس مجرد فضيلة، ولا مجرد عاطفة.. إنما هو «قانون» يحفظ لأصحابه الوجود، والبقاء..

وسكان هذا الكوكب – نحن البشر – في حاجة أكيدة، لإدراك هذه الحقيقة إدراكًا سديدًا..

وبالأمس.. الأمس البعيد، الذي أرسل فيه محمد، والمسيح.. كنا أشد حاجة لهذا الإدراك..

فغرائزنا التي خرجنا بها من الغابة.. ونظُمنا الملأى بالتناقضات.. كثيرًا ما تجعل منا خصومًا وأعداء، والحب منتصر حتمًا آخر الأمر؛ لأنه كما أسلفنا، ليس عاطفة، بل «قانونًا».. بَيْدَ أن ذلك لا يعني السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا القانون، وإحياء شعائره، والتزام جادَّته..

ولقد جاء الرسولان الكريمان ليناديا الخليقة إليه.. إلى الحب، والإخاء..

وأروع ما في دعوتهما للحب من شواهد: هو إسقاطهما ذنوب المتحابين في الله، وجعلهما «الحب» رحمة واسعة، تذوب في دفئها، الخطايا والآثام.

فالمسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التي بَشَّرَ بها الخاطئة، يقول:

«لقد أحبّت كثيرًا، فغفر لها كثيرًا»..!!

ومحمد..

يُساق إليه ذات يوم رجل من المسلمين، كان قد اعتاد احتساء الخمر.

ولم يكد أصحاب الرسول الجالسون معه يبصرون الرجل قادمًا، يُمْسك

بعضُ الصحابة بتلابيبه، حتى قالوا في ازدراء وضجر: «لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتى به شاربًا»..!!

ولكن الرسول لا يستريح لما يسمع منهم، فيقول لهم في اهتمام:

«لا تلعنوه؛ فإنه يحب الله ورسوله»..!!

وهكذا، يقيم المسيح والرسول، المعيار الحق لفضيلة الإنسان – أي إنسان – وهذا المعيار.. هو.. الحب..

وحب الله ورسوله هنا، يمثل مجالاً أرحب مما قد يتبادر إلى أفهامنا.

إن حب الله، يعني حب آثار رحمته جميعًا من بشر، وشجر وحجر.

يعني حب الحياة كلها، والإنسانية التي هي زينتها، ولبابها.

لقد غفر المسيح للخاطئة؛ لأنها كانت تتصل بالحياة العظيمة عن طريق علاقة من أوثق علاقاتها، وهي المحبَّة.

ورفض محمد، أن يُلْعن رجل سكير؛ لأنه كان يرعى في فؤاده نفس العلاقة.

وفي الوقت الذي تكون علاقتنا بالحياة قائمة، وصادقة، فإن أخطاء السلوك، تفقد ضراوتها وقيمتها، ما دامت لا تأخذ طابع التحدي والإصرار..

والحب – كما قلنا – أوثق علاقاتنا بالحياة.

ولقد يأخذ في مصطلحاتنا أسماء شَتَّى، فتارة نسميه الرحمة، وأخرى نسميه الإخاء، أو التعاون، أو البر..

ولكن اسمه الحق سيظل كما هو: الحب..

وسيظل «أبًا» لكافة العلاقات، والقيم، التي تربطنا بالحياة وتجذبنا نحوها.

وتكفير الخطايا بالحب، على النحو الذي رأيناه الآن من الرسولين الكريمين يشير إلى تفسير جديد للخطيئة وللذنْبِ..

فأفعالنا التي توصف بأنها خطايا، إنما حملت هذا الوصف؛ لأنها تثبط ولاءنا للحياة، وتؤذي علاقتنا بها..

وتكون أفعالنا شرِّيرة،لا بقدر ما تحمل من شَرّ، فليس للشر وجود ذاتي.. بل بقدر ما تعزلنا عن العلاقات الرشيدة الصحيحة الفاضلة التي تربطنا بالحياة، وتربط الحياة بنا..

لذلك صوّرا فرحهما العظيم، بل وفَرَح الله من قبل، بالإنسان التائب.. أي الإنسان الذي يعود إلى تصحيح موقفه من تلك العلاقات التي تصله بالحياة، ويعيش بسببها حيًّا، وكريمًا..!!

ضرب المسيح لهذا مثلاً:

«..ابنًا أخذ المال الذي أعطاه له أبوه، وسافر إلى كورة بعيدة، وهناك بذّر ماله.. فلما أنفق كل شيء، حدث جوع شديد وبدأ يحتاج، واشتغل أجيرًا لواحد من الناس، يرعى له خنازيره..

«وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، فلم يعطه أحد..

«فرجع إلى نفسه، وقال: كم أجير عند أبي يفضُل عنه الخبز، وأنا أهلك جوعًا..! أقوم وأذهب إلى أبي، وأقول له: يا أبي! أخطأت ولستُ مستحقًّا أن أدْعى لك ابنًا، اجعلني كأحد أُجَرَائك..!!

«وقام، وجاء إلى أبيه..

«وإذ كان لم يزل بعيدًا رآه أبوه، فتحنّنَ وركض، وأسرع إليه وقبَّله، وقال لعبيده:

«أخرجوا الحُلَّة، وألبسوه، واجعلوا خاتمًا في يده، وحذاء في رجليه، واذبحوا العجل المسمّن وأطعموا الناس.. ونادى قائلاً:

«لنفرح، ونُسرّ؛ لأن ابني هذا كان ميّتًا، فعاش، وكان ضالاً، فَوُجد»..!!

وبعد أن ينتهي المسيح من ضرب هذا المثل يدير بصره الودود على الوجوه المصغية إليه، ويقول:

«هكذا الله.. أبوكم السماوي.. يشتاق أن يرى أبناءه البشر يعودون إليه تائبين»..!!

وضرب الرسول مثلاً:

«لله أشد فرحًا بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة.. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه.. فأيسَ منها.. فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته..

«فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت (عبدي) وأنا (ربك).. أخطأ من شدة الفرح»..

ويأخذ الرسولان الكريمان قلوبنا إلى الحب أخذًا وثيقًا، بما يتركان لنا من قدوة تتمثل في سلوك صادق وعظيم.

فالمسيح في إحدى أمسياته الأخيرة على الأرض، يقوم عن طعام العشاء، ويأخذ «منشفة» ويتزر بها، ثم يصب الماء في آنية، ويدعو تلامذته، فيغسل لهم أقدامهم واحدًا، واحدًا، ثم يجففها بالمنشفة التي معه..

ويغشى تلامذته الحياء والفزع، ويحاولون منع المسيح، لكنه يواصل عمله العظيم، وهو يقول لهم:

«الآن تعلمون تفسيره»..

وبعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها، يقول:

«أنتم تدعوني معلمًا، وسيدًا.. وحسنًا تقولون؛ لأني كذلك..

«فإن كنتُ - وأنا السيد المعلّم - قد غسلت أرجلكم.. فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض»..!!

ويُخصب محمد واحة المحبة بكل عاطفة ريّانة طيبة، فيوصي الناس قائلاً:

«إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه»..

❁❁❁

«وإذا آخى الرجلُ الرجلَ، فليسأله عن اسمه، واسم أبيه، وممّن هو.. فإنه أوصلُ للمودَّة»..

ويقول:

«يقول الله عز وجل: المتحابون لجلالي، لهم منابر من نور، يغبِطُهم النبيّون، والشهداء»..

❁❁❁

«إن من عباد الله أُناسًا، ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة؛ لمكانهم من الله تعالى»..!

«قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم..؟

«قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها.. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون

إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس».. وقرأ هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢]..!!

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والغرض.. فيقول:

«تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها».

وهو أيضًا يقرر أن الحب يغطي ضعفنا، ويرفعنا إلى كل مكانة عالية، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها.. وذلك حين يسأله «أبو ذر»:

يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟

فيجيبه الرسول:

«المرء مع من أَحَبَّ»..

إن الحب هو الزاد الذي يردُّ عن البشرية سَغَبها المضني، وهو الرِّيُّ الذي يدفع عنها ظمأها القاتل.

وهي لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب؛ لأن الحب هو الآصرة العظيمة التي تجمعها بالحياة، وتمنحها الجناحين الذين تحلّق بهما وتطير.

✿ ✿ ✿

والصدق...

إنه العلاقة الثانية التي ترتبط بها مع الحياة..

ومكان الصدق من الحب، جد قريب..

فنحن نكذب حين نخاف..

نكذب على الناس حين نخافهم.. ونكذب على القانون، حين نخافه.. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها، حين نخافها..

ومع الحب، لا يوجد خوف.. وإذن، لا يوجد كذب..!

والصدق هنا، أبعد مدىً، وأرحب مفهومًا من مجرد الإخبار بالواقع..

أعني: ليس هو قول الحق وحسب.. بل هو أن نعيش الحقَّ نفسه.

هذا، هو الصدق، كعلاقة تربطنا بالحياة، وهو يعني تحرير أنفسنا من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزوَّرة.

يعني أن يشتملَنا تطابق واضح، بين ظاهرنا وباطننا.. بين حياتنا الباطنة، وحياتنا الظاهرة.

ويعني أن نكون قَوَّامين بالقسط، ولو على أنفسنا.

ويعني أيضًا: بذل أقصى الجهد في كل عمل نعمله، وفي كل موقف نتخذه..

ولقد علّمنا هذا محمد، والمسيح..

لقد شَنَّا على الرياء هجومًا عنيفًا.. وأخبر الرسول أن «ذا الوجهين» يُدْعى عند الله كذابًا.

فالرياء كذب.. والكذب تزييف لعلاقة ثمينة من علاقات الحياة، وقيَمها، وهي الصدق.

من أجل هذا، كان الرسولان يحتفيان بكل مخطئ يتقدم، وفي يده وثيقة إدانته.

هذا الذي يسميه عصرنا الحديث، بـ «النقد الذاتي»..

ولطالما ضرب الله برسوله المَثل، واصطنع منه القدوة..

فإذا أخطأ - مثلاً - مع إنسان ضرير.. ولو بحسن نية، وقف في محراب الصلاة، والناس من ورائه صفوفًا ينصتون له، وهو يتلو عليهم وثيقة اعترافه، وأوْبَته:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس:١-١١]..!!

وإنه ليخدش أعرابيًّا ذات مرة، دون عمد، فيصرُّ على أن يخدشه الأعرابي مثلها..!!

ويقف فوق المنبر في جلال عظيم؛ ليقول لأصحابه الذين يستمعون له:

«من كنت جلَدت له ظهرًا، فهذا ظهري فلْيَقْتَدْ منه.. ومن كنت أخذت من ماله شيئًا فهذا مالي فليأخذ منه»..!!

إنه لم يجلد في حياته ظهرًا، ولم يؤلم لأحد ظفرًا.. ولكنه الصدق المطلق مع الحياة، يُماسه الرسول في أنقى صُوَره، وأوفاها بالذمَّة والطُّهر..

وإذا كانت حياته لم تتلفّع قط برياء أو ضعف، فهي كذلك لم تتلفّع قط بغرور، ولا بصَلَف..

لقد كان يسابق زوجته، ويخصف نعله بيده، ويرقع ثوبه بنفسه.

ولقد حلب شاته.. وخدم أهله.. وحمل الطوب مع أصحابه في بناء مسجده.. وربط على بطنه الحجر من الجوع..!!

وكان إذا سار في الطريق، ومعه أصحابه، دعاهم ليتقدموا عليه..

وإذا قدم عليهم، وهم جلوس، جلس حيث انتهى به المجلس..

وكان يقول لهم دائمًا، حين يدعونه لتكريم خاص:

«إني أكره أن أتميَّز عليكم»..!!

هذا هو الصدق مع الحياة..

أن نعيشها، عادلين، طيبين، واضحين، وُدَعاء، بُسَطاء..

وأن نمارس مسئولياتها، ونعانق واجباتها، لا أن نتبذّخ بما فيها من فراغ وتَرَف وجاه..

اقرءوا..

«.. وفيما كان يسوع صاعدًا إلى أورشليم، أخذ الاثني عشر تلميذًا على انفراد في الطريق..

«وقال لهم: ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يسلَّم إلى رؤساء الكهنة، والكتبة، فيحكمون عليه بالموت.

«.. حينئذ، تقدمت إليه أم ابني زبدى مع ابنيها، وسجدت، وطلبت منه شيئًا، فقال لها: ماذا تريدين..؟ قالت له: أن يجلس ابناي هذان – يعقوب، ويوحنًا – واحد عن يمينك، والآخر عن اليسار في ملكوتك..!

«فأجاب يسوع وقال: لستما تعلمان ما تطلبان.

«أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا»..؟؟!!

ما أجزلها من عبارة..!!

فالحياة، ليست منصبًا فَخْرِيًا، ولا وُجُودًا شَرَفيًا..

إنما هي عمل جسيم دائب صادق..

وهنا نلتقي بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة..

✿ ◉ ✿

إنها العمل...

والحياة بغير عمل، تفقد ذاتها.. فهي عمل مستمر، وصاعد..

هي حركة أزلية، وأبدية خالدة.. كل شيء فيها يموج بالحركة والمثابرة..

هذه المياه الجارية.. هذه الرياح السارية.. هذه الأشجار، والأزهار.

بل هذه الصخرة التي تبدو جامدة.. والخشبة التي نحسبها خامدة.

كلها، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة دائبة، ونشاطًا موصولاً.

ولكن العمل قد ينحرف، فيفقد على الفور مزيته، وقيمته.

من أجل هذا، عُني «خُبز الحياة» كما عُني «صديقُها» بأن يُزكيا جميع الخصائص التي تحتفظ للعمل بقيمته وبنقائه.

لقد أراد للعمل أن يكون دائمًا:

جليلاً..

نافعًا..

مستمرًّا..

صاعدًا..

فالعمل الجليل، النافع، المستمر المُولِّي وجهه شطر الأمام.. لا الزاحف إلى الخلف..

هذا العمل يمثل أسمى واجباتنا، كما يمثل علاقة كبيرة من خير علاقاتنا بالحياة..

وجلال العمل، يعني الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى الكمال الميسور.. حتى نحقق بها عظائم الأمور، ولا نقنع بصغارها..

يقول الرسول في هذا:

«إن الله يحب معالي الأمور.. ويكره سَفْسَافها».

ويقول المسيح، مطالبًا الناس بمزيد من العمل، وبعيد من الهمة:

«كل من أعطى كثيرًا.. يُطْلب منه كثير»..

ويقول محمد:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»..

ويُحذِّر من الأعمال الناقصة المبتورة، ويُؤثِر العمل المستمرَّ - ولو كان قليلاً - على العمل الأبتر، ولو كان كثيرًا.. ويضرب لهذا مثلاً جميلاً حين يقول:

«فَإِنَّ المنْبَتَّ، لا أرضًا قطع.. ولا ظهرًا أبقى»..!!

وهو يريد من العمل أن يكون واعيًا.. وأن يكون في خدمة التقدم الإنساني.. ولا يكون انتكاسًا أو ردَّة إلى الوراء..

وإنه لعظيم باهر، وهو يقول في هذا ما معناه:

«يُذاد أناس من أُمتِي عن الحوض يوم القيامة! فأنهض لأشفع لهم، فيقول الله لي:

«يا محمد، لا تفعل.. إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك..

فأقول: يا رب، وما أحدثوا..؟

فيقول سبحانه: إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم»..!!

والرسول - كما ذكرنا قبلاً - وكذلك المسيح - كانت دعوتهما حركة جديدة سائرة نحو المستقبل، متجهة إلى الأمام دَوْمًا.

وإنهما ليُجلاَن العمل، ويهيبان بنا أن نرتفع به فوق كل عرض رديء، ونجنبه كل انحراف وزيف.

والإنسان الذي يقضي حياته في عمل صادق نافع - يصير موضع رعاية الله وتقديره..

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥]..

ولقد لقي رسول الله ﷺ يومًا أحد أصحابه، وحين صافحه، أحسّ في كفه خشونة.. فسأله:

«يا سعد، ما بال كفّيك قد أمْجلتا»..؟!

فأجابه سعد:

- من أثر (العمل) يا رسول الله.

فرفع الرسول كفي سعد إلى فمه وَقَبّلهما، ثم قال:

«كفّان، يحبهما الله، ورسوله»..!!

✿✿✿

هكذا، كان برُّ محمد والمسيح بالحياة..

لم تجمعهما بها عاطفة عابرة، بل وعي رشيد، وإدراك سديد لقيمتها، ودَعْم هائل لكل القيم والقوى التي تبعث فيها الازدهار والتألُّق...

وعلى رأسها جميعا ما ذكرناه: الحب والعمل..

ولقد عاشا حياة مترعة بالحب، وبالصدق، وبالعمل..

وكان لهما مع الزمان رحلة من أمجد، وأنفع، وأبقى رحلاته.

واليوم، ونحن نشيد من آمالنا، ومن إصرارنا بناء عزم جديد قادر، نريد أن نحمي به حياتنا من الدمار، ننحني إكبارًا لهذين الرائدين الجليلين ولإخوة لهما سبقوهما بالإيمان وبالسعي، من أجل أن تبقى الحياة مزدانة بأحياء مباركين.

وإذا كانت الحروب هي شر ما يحيق بالحياة من خطر..

وإذا كان «محمد والمسيح» قد أعلنا في ولاء وإصرار، حق الحياة في الحياة..

فإنه لمن الضروري إذن، أن تبصر موقفهما من السلام، وكيف أراداه وعلى أية صورة تمثلاه..

وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيدًا الدور الذي قام به محمد وصاحبه

لإقرار السلام في الأرض .. وجعله شعيرة من شعائر الله ..!!

❁❁❁

السلام...

عندما ترن في سمع الظامئ العطشان كلمة «ماء» ..

وفي سمع الجائع السَّغْبان كلمة «خبز» ..

وفي سمع المشرف على الغرق ، المتخاذل تحت ضربات الموج كلمة «شاطئ» ..

لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقا ، إلا قليلًا جدًّا ، مما هو للرنين الصاهل القوي المفرح، الذي تتركه في عصر الذرَّة كلمة «سلام» ..!!

ولو أن الحرب، وحدها هي التي تتهدد وجودنا كله، لهان الأمر، أو كاد..

غير أن الذي يُحاصرنا بأخطاره الماحقة، والذي تعتبر الحرب نفسها نتيجة له.. هو التفكير المُلْتاث المغرض..

وإني لأذكر الفزع الشديد الذي غشيني ذات يوم قريب، حين طالعت خطابًا، أو تصريحًا لرجل مسئول في أوروبا، يشغل منصبًا خطيرًا، يقول:

«لا بد من الحرب؛ دفاعًا عن الحضارة المسيحية»..!!

وقلت لنفسي يومها:

مسيحية، وحرب..؟؟!!

أي اتفاق «سعيد» هذا..؟؟!!

إن هذه العبارة، التي تقال في عصرنا هذا، المتحضِّر كثيرًا، والمتقدم جدًّا.. (!) لتشير إلى «الفضيلة» التي طالما تنكَّرت فيها «رذيلة» العدوان والبَغي..

فمعظم الحروب التي أثخنت جروح الحياة، كان لها منطق تسويغي، وحجة تبرر قيامها، وتمنحها المشروعية، وجواز المرور..!!

فباسم الدفاع عن الأديان تارة.. وباسم الحرية، وحماية حقوق الإنسان تارة أخرى.. وباسم تمدين الشعوب المتخلفة.. وباسم المجال الحيوي للدول التي ضاقت الأرض فيها بأهلها..

وباسم أشياء كثيرة، كانت تبدو، كأنها منطقية وعادلة.. قامت حروب صبغت الأرض بالدم.. وغَطَّت ترابها بالأشلاء والجماجم..

وكان وراء تلك الحروب.. ووراء شعاراتها الكاذبة، ذلك الذي أسميناه آنفًا.. بالتفكير الملْتاث المغرض..

وهو «مُلتاث».. لأنه يجهل إرادة التاريخ ..

و«مغرض» .. لأنه يُقاومها ويتحداها ..

أي أنه بتعبير آخر.. كان وراء تلك الحروب، جهل بإرادة التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا، نضع أيدينا على «نقطة البدء» في موقف محمد والمسيح من الحرب، ومن السلام..

وهنا – أيضًا – تَفْنى تلك الشُّبهات التي تُلقي في رُوع الكثيرين منا، أن لمحمد من الحرب موقفًا يُغاير موقف المسيح..

إن من يحترم الإنسان، والحياة، مثلما احترمها المسيح والرسول – لن يكون حرصه على السلام إلا عظيمًا.

فالسلام، هو المجال الآمن الذي تترعرع فيه مواهب البشر، وقدراتهم، وهو السلوك الأوحد اللائق بأناس يجمعهم على الأرض عناء مشترك.. ورجاء مشترك.. وسعي مشترك..

ناس أبوهم واحد.. وأمهم واحدة..

ناس ليسوا - مهما يتباغضوا ويتباعدوا - سوى إخوة وأشقاء..

من أجل هذا، كانت أولى الحقائق الجديرة بأن يرتدّ إليها صوابهم، هي ذي..

ومن هنا، بدأ المسيح وأخوه دعوتهما للسلام..

قال المسيح لتلامذته:

«معلمكم واحد، المسيح.. وأنتم جميعًا إخوة».

وقال محمد:

«كونوا عباد الله إخوانًا.. كما أمركم الله تعالى».

ولم يكن «الإخاء» مجرد كلمة يُردّدانها. بل كان كما رأينا من قبل وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان.. عقيدة، وسلوكًا.

لقد ذكرنا في مبتكر هذا الكتاب أن حياة كل من الرسولين العظيمين، كانت طاهرة، لا شِيَة فيها.. ولم يحدث أن أُخذ عليهما شيء - أيّ شيء - من التزيد والادّعاء.

ولقد دَعَوا إلى الرحمة.. فكان لا بد أن يكونا رحيمين.. ودَعَوَا إلى العدل، فكان لا بد أن يكونا عادلين.

ودَعَوَا إلى السلام، فكان لا بد أن يكونا مسالمين.

ولقد كانا كذلك فعلاً. وعند أكثر مستويات الكمال البشري ارتفاعًا عاشا حياتهما، ومارسا دورهما الفذ العظيم.

إن أقوالهما في السلام، لمشرقة إشراق الصباح المبلل بقطر الندى.

وإن سلوكهما مع السلام، لمجيد.

إن الناس يحاربون؛ ليفرضوا مشيئتهم.

ولقد ألغى المسيح فرض المشيئة هذا حتى لو كانت مشيئة عادلة وفاضلة.

قال لتلامذته وهو يوصيهم:

«وأية مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا: حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم ننفضه عنا»!

والناس يُحاربون من أجل الأرض يستعمرونها، ويستغلونها.

ولكن استعمارهم هذا وغلَبهم ذاك، لن يدوما.. وسيكون للمسالمين الودعاء جميع المستقبل، وجميع المصير:

«طوبى للودعاء؛ لأنهم يرثون الأرض».

وهو – أعني المسيح – يضع مبدأ هائلاً، ورشيدًا في العلاقات الإنسانية، فيقول:

«من ليس علينا.. فهو معنا».

وينفر من الحرب نفورًا شديدًا، ويحذر من عُقباها، فيقول:

«كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب.. وبيت منقسم على نفسه يسقط».

ويحب الحياة وديعة، مزدهرة، حافلة بالمباهج والحب، ويبث في الأفئدة طمأنينة، وأملاً، ويخفف عنها روعها، ويتمنى للحياة عمرًا طويلاً في هذه الكلمات:

«إذا سمعتم بحروب وقلاقل، فلا تجزعوا.. لأنه لا بد أن يكون هذا أولاً.. ولكن لا يكون المنتهى سريعًا»...!!

كم هي عذبة، وطيبة، ومتفائلة، كلماته الحانيات هذه.. «لا يكون المنتهى سريعًا»..!!

وما ترك - ابن الإنسان - ثغرة، تستطيع البغضاء، ويستطيع الشر أن ينفذا من خلالها إلى الحب، وإلى السلام، إلا أوصدها، وتحاماها.

ومن الحب، والسلام، والإيمان، والطهر، شاد حول الحياة سياجًا لا يرام.

فدعوته: المضروب على خده الأيمن، أن يعطي لضاربه خده الأيسر.

ودعوته: من اغتُصب رداؤه، أن يترك الإزار أيضًا.

وتحذيره المجلجل، للذين تجيء منهم العثرات المفنية لهذا العالم.

وإعلانه، أن «كل من غضب على أخيه باطلاً، يكون مُستوجب الحكم».

وقوله:

«إن أعثرتك يدُك فاقطعها».

***

«ما جئت لأُهلك، بل لأخلّص».

***

«أريد رحمة.. لا ذبيحة».

كل هذا الهدى، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة.

إنه لم ينتظر حتى يسيء الناس إلى الحياة بالقتل.. فتلقّاهم دون ذلك بأبعاد بعيدة.. تلقاهم عند الغضب - مجرد الغضب - وصاح: هذا قتل..!!

فهل يعلم هذا - جيدًا - الذين يؤمنون بالمسيح في زماننا، إنه لخليق بهم أن يعلموا..!

وخير لهم ألا يضلوا في زحمة البغضاء والطمع، عن كلماته المضيئة.. ومشيئته السديدة.

✿❁✿

ولمثل هذا الذي يعمل من أجله العاملون.. عمِلَ إنسان من أكثر أبناء الحياة برًّا بها، وغيرة عليها.

إنه «محمد».

لقد وقف يبلّغ عن ربه في ولاء الصادقين، ويقين المرسلين أنه:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

انظروا...

إن الحياة لا تتجزأ.

ليس هناك حياة لي.. وحياة لك.

إن الحياة كائن واحد.. وأي مساس بأي جزء منها، مساس بها كلها، وعدوان عليها جميعها..!!

وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل.. اعتبر محمد القطيعة قتلاً، فقال محذرًا منها:

«من هَجَرَ أخاه سنة.. فهو كسفك دمه»..!

وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون ويتقاتلون من أجل الأرض يستعمرونها، فيحمي السلام من هذا السبب.. ويعلن أن من غيّر تخوم الأرض لينال شبرًا، ليس له فيه حق، برئت منه ذمة الله، ورسوله..!!

ويختصم إليه اثنان: غرس أحدهما نخلاً في أرض الآخر.. فيقضي لصاحب الأرض بأرضه، ويأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها.. فتضرب أصولها بالفئوس فورًا..!

ويقول في حديث زاجر عظيم:

«من اغتصب – شبرًا – من أرض طوّقه إلى سبع أرَضين».

ويعطي هذا المعنى مزيدًا من التوكيد؛ لعلمه بما يجره الغصب والطمع من شقاق، ونزاع، وقتال.. فيقول:

«من اغتصب مال أخيه بيمينه – أي بالقوة – حرم الله عليه الجنة، وأدخله النار..»

سأله سائل: يا رسول الله، وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال:

«وإن كان عودًا من أراك»!!

ويُسأل محمد – كما أسلفنا – عن أفضل الأعمال، فيجيب:

«بذل السلام للعالم».

ويربط الإيمان بالحب ليُنشئا معًا سلامًا للحياة وأمنًا.. فيقول:

«والذي نفسي بيده، لا تؤمنوا حتى تحابّوا.. ألا أدلكم عن شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟. أفشوا السلام بينكم».

ويرفع السعي من أجل السلام إلى مكانة تفضل جميع العبادات، فيقول في حديث رائع:

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام؟ إصلاح ذات البين»!!

ويستبعد كل أسباب الشجار، حتى التافه الضئيل منها، ليقول:

«إذا مر أحدكم في مجلس، أو سوق، وفي يده نبل فليأخذ بنصالها لا يخدش بها أحدًا»..!

ويبلغ عن الله سبحانه قوله:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

ويسأل سائل:

يا رسول الله، دلني على عمل، إذا عملته أكون قد فعلت الخير جميعًا.

فيجيبه الرسول عليه السلام، «لا تغضب»..!

لقد تتبع الرسول كل أسباب البغضاء، والحرب، في سلوك الفرد، وفي سلوك الجماعة، فكافحها ونهى عنها.

ولعل سائلاً يسأل:

إذا كان محمد قد أنزل «السلام» من قلبه، ومن شريعته هذا المنزل الرفيع.. فكيف إذن حمل سيفه وحارب.. وكيف إذن، جعل الجنة تحت ظلال السيوف؟!!

سؤال عادل، ومنطق أمين..

والإجابة عنه ترجع بنا إلى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا عن السلام.. إذ قلنا: إن الحروب تنشأ دائمًا، أو غالبًا من سبب واحد، هو جهل إرادة التاريخ، ومقاومتها.

حيث يوجد هذا السبب، يوجد لا محالة تحفز وحرب.

ذلك أن التاريخ، الذي هو تطور إنساني زاحف، لا رادَّ لسيره.

التاريخ هذا.. ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائمًا.

وكل مرحلة جديدة منه، تفرض نفسها بقوة الميلاد، وبقوة الضرورة التاريخية التي أهابت بها لتجيء.

كما أن مرحلة قديمة مائلة للغروب، تحاول التشبث والبقاء.

وتصطنع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس وأنصارًا..

وهنا يقف الجديد، والقديم وجهًا لوجه..

وحين تكون هذه المواجهة تكون الثورات، وتكون الأحداث الكبيرة.

وكلما أمعن أنصار المرحلة الآفلة في جهل إرادة التاريخ، وفي مقاومتهم لوليده الجديد، يكون الصدام أمرًا محتومًا..

وهذا ما حدث أيام الرسول عليه السلام..

قامت حروب.. كان سببها الجهل بإرادة التاريخ، ومقاومة هذه الإرادة.

ولم تأت المقاومة من جانب محمد. بل من الجانب الآخر المعادي له.

أما محمد، ودعوته.. فقد كانا يمثلان الجديد القادم.. يمثلان إرادة التاريخ نفسها..

وهذا واضح تمامًا، من ظروف الدنيا أيام بعثته، ومن طبيعة دعوته التي جاء بها.. ولقد أشرنا لهذا في الفصل الثاني من فصول الكتاب.

أنا لا أحاول هنا الدفاع عن الرسول، ولا أحاول تبرير نضاله.. فليس في حياته العظيمة كلها ما يدعو لمثل هذه المحاولة.

وإنما أحاول افتراض أن «السلام» نفسه تَجسّد وصار إنسانًا.

فماذا كان هذا الإنسان صانعًا تجاه الظروف المعادية التي ناوأت محمدًا..؟؟

إن الإجابة عن هذا السؤال يسيرة، إذا نحن أدركنا المفهوم الصحيح للسلام..

فالسلام ليس هروبًا من المسئولية.. وليس إذعانًا لقوى الشر، وليس مسايرة للخطأ.. وليس عجزًا عن الاختيار، والممارسة..

وبعبارة واحدة: السلام قيمة تعبر عن نفسها بالإيجاب، ولا بالسلب.

وأكثر الناس تقديرًا للسلام، وحاجة إليه - رسول جاء يدعو إلى عبادة الله، وتزكية النفس..

إن السلام يمثل «الوطن» لدعوة من هذا الطراز..

وقد لاذ محمد بهذا الوطن.. لا يريد من الناس سوى أن يتركوه يبلّغ كلمات ربه.. ويمارس واجبًا يملأ نفسه، ويدعو دعوة لا تقاوم، إلى التبشير به، والعمل في سبيله.

وسارع، فأعلن «تعايشًا سلميًا» عادلاً..

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:٦]..!!!

ولكن أعداء التاريخ، لم يتركوه، ولم يمهلوه..

لم يذَرُوا دنيئة إلا ارتكبوها معه..

حصبوه بالطوب..

سلطوا عليه سفهاءهم، فغمروه بروث البهائم، وهو ساجد يناجي ربه.

حاصروا أهله، وعشيرته حصارًا اقتصاديًا خانقًا..!!

مارسوا شر الجرائم، وأرذلها، مع الفقراء والمستضعفين الذين اتبعوه..!!

ثلاث عشرة سنة، قضاها وسط مؤامرات لا تهدأ، واعتداءات لا ترعوي.. وهو في صبره، وفي حلمه، وفي السلام الحق الذي يريده ويحبه، ويتمنى دوامه..

يمعنون في إيذائه، وفي الكيد له.. فيمعن في الصفح عنهم، وفي الدعاء لهم.

ولا تشغله جراحه الثاغبة، وآلامه اللاهبة عن الابتهال من أجلهم:

«اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»..!!

لنتأمل جيدًا كلمة – لا يعلمون – فإنها تمثل إدراك الرسول لحقيقة المشكلة: جهل أعدائه بإرادة التاريخ، التي هي إرادة الله من قبل.

وما داموا – لا يعلمون – فإن واجب الرسول أن يُعلمهم..

وهنا يتضح السر العظيم الجليل في صبر الرسول عليهم ثلاثة عشر

عامًا..

ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام، الذي هو إيجاب، لا سلب.. ومواجهة، لا هروب..!!

لقد كان محمد، وهو يصبر على أذاهم، ويعلمهم - يمارس سلامًا حقيقيا، فهو لم يَحْلم عليهم، ويصبر على هولهم.. خوفًا أو استسلامًا.

بل، لأنهم لا يعلمون.. وعليه أن يعلمهم..

لا يبصرون.. وعليه أن يفتح عيونهم..

وهذا هو السلام..

السلام الإيجابي، الذي يواجه مسئولياته، دون أن يحمله العدوان على الهروب، ولا على المقاومة غير المشروعة..!

ولكن هؤلاء - الذين لا يعلمون - يستنفدون - آخر الأمر - كل حقهم في المعرفة، وكل فرصتهم في السلام..

ذلك أنهم يصرّون إصرارًا وبيلاً، لا على التشبث بباطلهم فحسب.. بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها.

وقرروا قتل محمد عليه صلاة الله وسلامه..!!

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة، لم يشأ الرسول أن يقاوم.. على الرغم من أن المقاومة آنئذ، صارت حقًّا مشروعًا له، بل وصارت تعبيرًا آخر عن العدل، وعن السلام..

لم يشأ أن يقاوم، وهاجر إلى المدينة..

ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذي جعل المقاومة محتومة ولازمة..

لم يقاتل الرسول - حين قاتل - من أجل توسع، أو امتلاك، أو سيادة بل

حصر جهاده «في سبيل الله».

وعبارة «في سبيل الله» هذه.. تمثل الإطار الذي خاض الرسول المعركة داخله.

ولا يكاد شيء يكشف عن ولاء الرسول للسلام، مثلما يكشفه سلوكه في الحرب.

فعلى كثرة الغزوات التي خاضها، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعًا، سوى بضع عشرات من كلا الفريقين..!

وحين علم يومًا أن خالد بن الوليد أسرف في القتل في بعض غزواته، جلجل غاضبًا، ورفع يديه إلى السماء معتذرًا إلى الله، ضارعًا وهو يقول:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»..!!

ولقد كان أمْرُه لأصحابه بين يدي كل معركة:

«لا تقتلوا امرأة».

«ولا شيخًا».

«ولا وليدًا».

«ولا تحرقوا زرعًا»

«ولا نخيلاً».

«ولا تنهبوا».

«ولا تمثلوا بأحد».

«واجتنبوا الوجوه، لا تضربوها».!

❁ ❁ ❁

وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة.. جاء محمد ليستأنف المسير.

ولقد كان «الصليب الكبير» الذي أعدّه المجرمون للمسيح.. يتراءى للرسول دومًا..

وما كان من الخير أن يُمكَّن المجرمون من انتصار جديد.. يتلمظون فيه بدم رسول شهيد..!

وما كان من الخير أن تخنق دعوات الهدى في المهد، كل مرة.

وإذا كان المسيح، قد حمل «صليبه» من أجل السلام.

فإن محمدًا، قد حمل «سيفه» من أجل السلام.

كلاهما، سيف.

الصليب الذي حمله المسيح، سيف، أراد اليهود أن يقضوا به على «ابن الإنسان» ورائد الحق»..

وسيف محمد، سيف، أراد محمد أن يقضي به على أعداء الإنسان، وأعداء الحق.

وغاية الرسولين واحدة: السلام.

في دور المسيح كان السيف مُسلطًا على الحق.

وفي دَوْر محمد كان السيف مُسلطًا على الباطل

وفي سلوك المسيح عبر السلام عن نفسه بالرحمة..

وفي سلوك محمد عبر السلام عن نفسه بالعدل..

وهكذا استكمل جناحيه اللذين يحلق بهما عاليًا..

والرسول لم يحترف القتال، ولم يكن له هواية..

وإنه ليعلم أصحابه، ويرسم لهم الحدود المشروعة للنزال:

«أيها الناس..

«لا تتمنوا لقاء العدو..»

واسألوا الله العافية..

«وإذا لقيتموهم، فاصبروا».

أرأيتم..؟؟

إنه إنسان ودود، مسالم.. لا يريد لقاء العدو، ولا يتمناه.

وإنه ليسأل الله في ضراعة، أن يباعد بينه، وبين هذا اللقاء.

ولكن، إذا اضطره إليه واجب الدفاع عن الحق، وتأديب الباطل فسينهض من فوره، ويصبر على مشقات النضال..!!

ولقد عاش المسيح – في دعوته – ثلاثة أعوام.

وعاش محمد – في دعوته – ثلاثة وعشرين عامًا

وعلى الرغم من قصر الزمن الذي عاشه المسيح داعيًا، وعلى الرغم من تشبثه بالتسامح المطلق.. فقد كانت مكايد المتربصين به تشد زناد غيظه، فيزجرهم بكلمات شِداد.. ويكاد – أحيانًا – يجنح إلى القصاص، ويشيد بالقوة العادلة..

فهو – مثلاً – يقول: «إذا شتمك أخوك، فوبخه.. فإن تاب فاغفر له».

ويقول:

«حينما يحفظ القوي داره متسلحًا، تكون أمواله في أمان».

وكثيرًا ما نراه، وهو يخاطب – أولاد الأفاعي – يحتدم غيظًا.. وكأنه يرغب في أن يضربهم، ويدحرجهم على الأرض، كما فعل بموائد الصيارفة، وأقفاص الباعة حين دخل الهيكل.. ولكن إدراكه العميق لدوره.. وإيمانه بأنه جاء الدنيا ليلقي عليها درسًا عظيمًا في التسامح والمحبة جعلاه يكظم غيظه، ويشرب كأسه في سلام..!!

قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه، حين هاجمه أعداؤه ليلاً، ليأخذوه إلى

رؤساء الكهنة؛ كي يحاكموه:

«رُدّ سيفك إلى مكانه.. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشًا من الملائكة..؟؟!!

«فكيف تكمل الكتب..؟ إنه هكذا ينبغي أن يكون»..!!

أجل... هكذا ينبغي أن يكون.. ما دام قد جاء ليعلّم الناس، كيف يمكن للحب أن يتفوق على الكراهية، وللسلام أن ينتصر على المؤامرة..؟؟!!

* * *

وبعد.. فهكذا كان ولاء محمد والمسيح للحياة..

وهكذا كان موقفهما مع السلام.

لقد حملا تبعات الوجود.. وأديا أمانة الحياة على نسق جد عظيم.

وعلى الطريق الذي سارا عليه، لا تزال كلماتهما ترسل ضياءً باهرًا، ولا تزال الدنيا تجد سكينة وأمنًا، في كلمات المسيح:

«سلامًا أترك لكم»..

وفي كلمات محمد:

«كونوا عباد الله إخوانًا»..



الفصل السادس

والآن ...

باراباس .. أم المسيح ..؟



عندما قاد اليهود في أورشليم روح الله عيسى إلى «بيلاطس» الحاكم الروماني، مطالبين بصلبه.. أطل «بيلاطس» عليهم، ومضى يحاورهم في شأن المسيح؛ إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه للموت حَسَدًا من عند أنفسهم..

قال لهم: «ماذا فعل يسوع، الذي يُدْعى المسيح»..؟؟

وأجاب اليهود، ورؤساء الكهنة: «إنه يفسد الأمة»..!!

وقال بيلاطس: «إني لا أجد علّة في هذا الإنسان»..

ونبحت كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية الحادة، التي تحرج «بيلاطس» وتُكرِهه على الإذعان لنباحها.

قالوا: «إنه يهيج الشعب.. ويمنع أن تُعْطى جزيةٌ لقيصر.. وإذا لم تصلبه، فلن تكون محبًّا لقيصر»..!!

وقال بيلاطس: «إننا الآن في العيد، وسنطلق كما هي العادة واحدًا من المحكوم عليهم.. فليكن هو المسيح»..

وتهارَش رؤساء الكهنة، وتراكَض يهود أورشليم كالخراف الضالة..

وصاحوا جميعًا: «لا.. لا.. أطلق سراح «باراباس»، أما المسيح فاصلبه».!

ويلح «بيلاطس» كي ينزلوا عند رأيه، فيقول لهم: «لقد فحصت هذا الإنسان قُدَّامكم، ولم أجد فيه علّة، ولا هيرودس أيضًا، وجد فيه شيئًا مما تشتكون منه»..

ولكنهم يَلْوُون ألسنتهم كأذناب الحيَّات، ويصيحون:

«خذ هذا.. وأطلق لنا باراباس»..

«باراباس.. باراباس.. أما المسيح، فاصلبه».

يقول إنجيل يوحَنّا:

«..وكان – باراباس – لِصًّا»..!!

ويقول إنجيل لوقا:

«إنه كان مطروحًا في السجن لأجل فتنة، وقتل».

ويقول إنجيل مرقس، مثل هذا أيضًا..

❁ ❁ ❁

إن نفس الخِيار، يُقَدم اليوم ويعلن:

وإنه لمن حسن الحظ أن الذين يختارون اليوم، ليسوا يهود أورشليم ولكنه العالم كافة.. والغرب المسيحي خاصة..

لقد رفض أحْبار اليهود في ذلك اليوم البعيد، أن يختاروا المسيح، لأنه جُماع فضائل لا يطيقونها.. ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار..!!

وحتى حين خجل ممثل روما العاتية الباغية، أن يشترك في المؤامرة الدنسة، وتوسل إليهم كي يَدَعوا للمسيح حريته.. رفضوا، وصاحوا به.. بل باراباس..

الحرية لباراباس.. والصلب للمسح..!!

ترى، ماذا يكون جواب البشرية اليوم، حين يطلب إليها أن تختار..؟

إن محمدًا رسول الله، ليهديها إلى الجُواب الحق.. ولقد سبق إلى الاختيار السديد..

لقد اختار المسيح.. أي اختار فضائله التي جاء – هو – ليبعثها من جديد..

فمنذ ألف وأربعمائة عام إلا قليلاً، وهو قائم هناك، في شبه جزيرة العرب، يبلِّغ رسالات ربه، أعلن أن المسيح سيعود.. وسيملأ الأرض نورًا، وسلامًا، وعدلاً..!! هذا هو، يقول:

«والذي نفسي بيده لَيُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم مُقْسِطًا»..!!

ترى، ماذا نفهم من عودة المسيح..؟؟

إن الجواب يسير، إذا عرفنا ماذا كان.

أكان ذلك الجسد الناحل.. والشعر المرسل.. والثلاثين عامًا التي سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد والوفاة..؟!

كلا...

إن المسيح، هو دعوته.. هو المثل الأعلى الذي تركه وأعطاه..

هو الحب الذي لا يعرف الكراهية.. هو السلام الذي لا يعرف القلق.. هو الخلاص الذي لا يعرف الهلَكة..

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض، تتحقق في نفس الوقت، عودة المسيح..

أجل؛ إن المسيح الذي سيعود، والذي تنبأ له الرسول بالرُّجْعَى، هو هذا..

هو السلام، والحب، والحق، والخير، والجمال..

ونحن، مع «الرسول الأمين»، نصيح:

المسيح.. لا باراباس..

الحق.. لا الباطل..

الحب.. لا الكراهية..

السلام.. لا الحرب..

الحياة.. لا الفناء..

وإنا إذ نرفع في أيماننا هذا الاختيار، ليهدينا إليه وعي عظيم بحتمية، وأفضليته، وقيمته..

ويهدينا إليه بصرٌ ثاقب باحتياجات عصرنا الذي يمزّقه القلق والخوف..

وبصر ثاقب بالمصير المروّع الذي سيحيق بالعالم إذا كتب النصر مرة أخرى للصرخة السافلة التي تقول:

باراباس... لا المسيح...!!!

إننا نعرف جيدًا، ونذكر تمامًا.. أن «مائة وخمسين مليونًا» من البشر، ذهبوا ضحية الحربين العالميتين السالفتين..!!

«مائة وخمسون مليونًا» ما بين قتيل، ومشوّه، وجريح، ومفقود..!!

قَتْلى ميادين الحرب.. وقتلى معسكرات الإبادة... وقتلى الغارات الجوية.. وقتلى الأوبئة التي تَذْرُوها رياح الحرب المنتنة..!!

«مائة وخمسون مليونًا» كانوا حصاد الهشيم.. والحصاد الأليم، لحروب خلَقتها، وأضرمتها، الروح التي تُؤثِر «باراباس».. وترفض «المسيح»..!!

الروح المكفهر القاتم، الذي يرى في الحرب صفقة.. وفي القوة امتيازًا.. وفي السرقة سيادة، ونبلاً..!!

الروح القائظ الملتاث، الذي لا يحب الحب.. ولا السلام.. ولا الحق..

تُرى، هل يسيطر هذا الروح، وينشر على الحياة الجميلة ضبابه وظلامه..؟؟

تُرى هل يقتحم الأفق الوديع، المشرق، نباح الكلاب من جديد:

باراباس.. باراباس..

أما المسيح، فيصلب..

أما السلام، فيصلب..

أما المحبَّة، فتصلب..

هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى..؟؟

إن التفاؤل الصادق الذي ملأ به محمد رسول الله أفئدتنا - لَيجعلُنا نجيب في يقين راسخ: لا...

لن يحدث ذلك مرة أخرى..

لقد أقسم «رسول الله محمد» أن المسيح قادم؛ ليملأ الأرض قسطًا وعدلاً.

ونحن نؤمن بصدقه..

ونؤمن بأن دعوة المسيح هذه.. تعني انتصار القيم التي كان المسيح يُمثلها، والتي قهر بها الرسولُ عالم الوثنية والظلام.

تعني انتصار الإنسان، وانتصار الحياة..

تعني سيادة الحب، وسيادة السلام..

* * *

عندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقبضوا على المسيح، تقدم من الحرس، وسألهم:

«من تطلبون»..؟؟

أجابوه: «نريد الناصِريّ»..!!

فقال:

«أنا هو.. ولست أسألكم إلا شيئًا واحدًا».

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا معه في البستان، واستأنف حديثه مع الحرس قائلاً:

«أن تَدَعوا هؤلاء، يذهبون لبيوتهم؛ حتى أستطيع أن أقول لأبي حين ألقاه:

«إن الذين أعطيتني، لم أهلك منهم أحدًا»..!!

انظروا...

في هذه المباغتة الشّرّيرة المذهلة، لم يذكر نفسه، ولا حياته.. وإنما ذكر مسئوليته الكبرى تجاه الآخرين..!!

لم يشترط لنفسه نجاة، ولا سلامة.. وإنما اشترطها للآخرين..

وذلك كي يستطيع أن يقول لربه حين يلقاه:

«إن الذين أعطيتني، لم أهلك منهم أحدًا»..!!

هذا هو روح العصر الذي يبشرنا محمد بمجيئه.. والذي نرقبه صابرين.. واثقين.. عاملين..

عصر يتفوق فيه الإيثار، والحب، ويحمل الناس فيه مسئولية وعيهم، وأمنهم، ورخائهم..

والواجب الذي سنذكره دَوْمًا، كلما ذكرنا المسيح، ومحمدًا..

هو:

- أن نجعل لوجودنا الإنساني حقيقة، ومعنى..
- وأن نخصّ الإنسان والحياة بالنصيب الأوفى من تبعات رشدنا..
- وأن يكون سبيلنا لهذا، الحق القويّ.. والمحبّة اليَقْظَى..

فهرس



فهرس

الموضوع	صفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٧
مراجع	١٠
الفصل الأول: (سقراط يقرع الأجراس)	١١
الفصل الثاني: (الهداية ترسل سفائنها)	٢٥
الفصل الثالث: (معا على طريق الرب)	٣٧
الفصل الرابع: (معًا من أجل الإنسان)	٦٧
الفصل الخامس: (معا من أجل الحياة)	١٤١
الفصل السادس: (والآن...باراباس..أم المسيح..)	١٧٩



كتب للمؤلف

١- من هنا نبدأ

٢- مواطنون.. لا رعايا

٣- الديمقراطية، أبدا

٤- الدين للشعب

٥- هذا.. أو الطوفان

٦- لكي لا تحرثوا في البحر

٧- لله والحرية (ثلاثة أجزاء)

٨- معا على طريق محمد والمسيح

٩- إن الإنسان

١٠- أفكار في القمة

١١- نحن البشر

١٢- إنسانيات محمد

١٣- الوصايا العشر

١٤- بين يدي عمر

١٥- في البدأ كان الكلمة

١٦- كما تحدث القرآن

١٧- وجاء أبو بكر

١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره

١٩- كما تحدث الرسول

٢٠- أزمة الحرية في عالمنا

٢١- رجال حول الرسول

٢٢- في رحاب علي

٢٣- وداعا عثمان

٢٤- أبناء الرسول في كربلاء

٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول

٢٧- ..والموعد الله

٢٨- خلفاء الرسول

٢٩-الدولة في الإسلام

٣٠- دفاع عن الديمقراطية

٣١- قصتي مع الحياة

٣٢- لو شاهدت حوارهم لقلت

٣٣- الإسلام ينادي البشر

٣٤- إلى كلمة سواء

٣٥- قصتي مع التصوف

٣٦- أحاديث قلم

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع